الباب الأول:
فقه الدعوة: ملامح وآفاق الدعوة إلى الله ودورها في هداية وسعادة البشر

الفصل الأول:
حاجة البشر إلى تعاليم السماء

لم يرسل الله تعالى رسولاً إلا أمره بالدعوة إليه سبحانه وتعالى وعبادته له وحده لا شريك له.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ومن هنا كانت الدعوة إلى الله وحده وعبادته هي وظيفة الرسل جميعاً ومن أجلها بعثهم الله تعالى إلى الناس بدءاً بسيدنا آدم أبو البشر عليه السلام وختاماً بسيد البشر إمام الدعاة خاتم الرسل والأنبياء محمد ﷺ.

قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤].

لا تستطيع حصرهم بعدد معين نجزم به لا يزيد عنه أو ينقص منه..

ذلك لعدم ثبوته عن الوحي الإلهي، والخبر النبويّ الصحيح، وكل ما ورد عن النبي ﷺ عن بيان عدد الأنبياء والمرسلين حديث أبي ذر الغفاري في مسند أحمد وسنده ليس بالقوة كما قيل ولفظه:

قلت يا رسول الله: أي الأنبياء كان أول ؟

قال: آدم

قلت: يا رسول الله أنبي كان ؟

قال : نعم نبيّ مكلم

قلت : يا رسول الله كم المرسلون ؟

قال : ثلاثمائة وخمسة عشر جما غفيرا

وفي لفظ آخر : كم وفاء عدد الأنبياء

قال : مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً الرسل منهم ثلاثمائة وخمسة عشر جما غفيراً [1].

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [المؤمنون: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأعراف: ٦٥].

وما ذكره الله في شأن صالح عليه السلام من قوله: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وما أشار إليه من شأن شعيب عليه السلام من قوله : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [الأعراف: ٨٥] .

والشواهد على ذلك في كتاب الله وهدى رسوله ﷺ أكثر من يتسع المقام لسردها.. غير أننا نؤكد هنا مجمع ذلك الأصل بما يشمل جميع الرسالات في الدعوة إلى توحيد الله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

فهكذا اهتم الرسل بدعوة أممهم إلى أن يعبدوا الله وحده ولا يشركون به شيئاً، فالتوحيد أصل الدين وذروة سنامه وملاك الإسلام وعموده ودعامته الأولى لا تصح من إنسان قربة ولا يقبل الله منه عبادة إلا إذا كانت مقرونة بالتوحيد الخالص.. وإخلاص القلب لله وحده، ولذلك يقول الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩].

---

(١) مسند أحمد (١٧٨/٥ - ١٧٩، ٢٦٦).

وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣ ﴾ [الزمر: ٢ - ٣].

وقال تعالى مخاطباً لرسوله الكريم: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٦٣ ﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

ومن هنا كان التوحيد ثلاثة أقسام:

توحيد في الذات والأسماء والصفات.. وتوحيد في الربوبية وهي اختصاصه جل وعلا وتفرده بالخلق والرزق والتدبير لسائر المخلوقات والملكوت.. وتوحيد في الألوهية أي في العبادة وهو اختصاصه بسائر العبادات وتفرده بها دون سائر المخلوقات.

وقد أرشد الله الناس إلى أيسر الطرق في الدعوة إلى التوحيد والاستدلال بآيات الله وسننه الكونية وتفرده سبحانه بتصريفها وتدبيرها على تفرده بالتوحيد واستحقاق والعبادة له وحده لا شريك له: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨ ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

لقد سلك الأنبياء والمرسلون هذه الطريقة في دعوة أممهم إلى الهدى ودين الحق اهتداء بهدي الله وهو العليم الحكيم، ومن أبرزهم في ذلك أولو العزم من الرسل الذين جاءت بهم الآية رقم ٧ من سورة الأحزاب، حيث قال تعالى مخاطباً رسوله محمد عليه السلام: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾ [الأحزاب: ٧].

مرتبون في الزمن، فنوح أولهم، ونبينا محمد عليه السلام آخرهم، ومنهم إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام أبو الأنبياء، أرسله الله جل شأنه إلى قوم من الفرس عتاة جبارين يعبدون التماثيل فأنكر عليهم عكوفهم لها وتقربهم إليها، وقال لهم ما حكاه القرآن في سورة الأنبياء: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝٥٣ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٥٤ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ۝٥٥ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ

﴿ ٥٦ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ٥٧ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ٥٨ ﴾ [الأنبياء: ٥٢ - ٥٨].

وهكذا كان لكل رسول منهم أسلوبه في الدعوة إلى الله وتوحيده وعبادته..

وكان لسيدنا إبراهيم عليه السلام : أسلوب الحوار مع قومه عبدة الأوثان، ثم كان له بعد ذلك معهم أسلوب المواجهة، مواجهة الباطل الذي غالباً ما يعجز في مواجهة الحق وحينئذ يلوف إلى العنف.. قال تعالى : ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ٦٨ ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

وكان الأمر الإلهي القائل : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ٥١ ﴾ [غافر: ٥١].

﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ٦٩ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ٧٠ ﴾ [الأنبياء: ٦٩ - ٧٠].

وهكذا كانت الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ثورة على الفساد وأوكاره.. ثورة تهدف إلى تغيير المجتمع.. كل المجتمع بجميع طوائفه وطبقاته تغييراً إلى الأفضل عن طريق الإخلاص والعبادة لله رب العالمين والالتزام بتعاليم السماء.

وقد يسأل سائل ويقول : ما الحاجة إلى تعاليم السماء من وعظ وإرشاد وبين أيدينا كتاب الله عز وجل وسنة رسوله وعندنا من العلماء الذين هم ورثة الأنبياء في العلم ما قد يزيد عن حاجة السائلين ؟

والواقع : أن هذا السؤال يكون في محله وهذا الكلام يكون مقبولاً لو كان الناس جميعاً على مستوى واحد من العلم بالكتاب والسنة والإحاطة بجميع ما جاء به الدين الخاتم : الإسلام على لسان النبي الخاتم القال في أشرف أحاديثه :

«إن مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية.. فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة.. فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين» (١).

(١) انظر: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق فيه الشيخان (البخاري ومسلم) جـ٣ ص٩٤.

فالإسلام هو الدين الشـــامل.. وهو الدين الكامل مصداقاً لقولـه تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].

إن الناس مختلفون في العلم بهذا الدين وأصوله، متباينون في فهم نصوص كتابه وأحاديث رسوله ﷺ والإحاطة بجميع ما جاءت به الرسالة الصحيحة من أحكام وتفاصيل والحرص على الاتباع والبعد عن الابتداع.

أما الطباع البشرية فسرعان ما نجد فيها من التقلب والتكون والإقبال على عوارض الشبهات، وقد قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وما سُمي القلب قلباً إلا أنه سريع التقلب بين لحظة وأخرى وبين عشية وضـــحاها.. ولعلّ هذا ما عناه رسولنا الصادق المصدوق في الحديث الذي أخرجه النسائي وابن ماجه والحاكم قوله ﷺ : «القلب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء».

وفي لفظ: «إن شاء أن يقيمه أقامه وإن شاء يزيغه أزاغه».

ومن هنا كان دعاؤه ﷺ : «اللهم مصرف القلب صرف قلوبنـــا علـــى طاعتـــك» أخرجه مسلم.

وفي رواية الترمذي والحاكم : «يا مثبت القلوب ثبت قلوبنا على دينك».

ومن أمراض القلوب والدافع إلى تقلبها حب الدنيا والزهد في الآخرة.

وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ خطب يوماً في جمع من أصحابه فقال :

«إني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي ولكني أخاف عليكم الدنيا وأن تنافسوا فيها»..

﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ ﴾ [المعارج: ١٩ - ٢١]. متحولاً متقلباً لا يكاد يثبت على حال أو يستقر في قرار.. وأن التبدل سنة الكون والتغير من شيمة كل زمان وطبيعة كل مجتمع مهما كان نصيبه من الأخلاق والفضيلة.

ومن هنا كانت أهمية الدعوة إلى الله والتذكير بآلائه والحث على عبادته وتقواه والتحذير من ناره والترغيب في رضائه وجنته.

ورد في الخبر أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قام خطيباً في الناس وبعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله قال :

أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وإنكم تضعونها في غير موضعها وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقابه»، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبۡنَٰهَا حِسَابٗا شَدِيدٗا وَعَذَّبۡنَٰهَا عَذَابٗا نُّكۡرٗا ٨ فَذَاقَتۡ وَبَالَ أَمۡرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا خُسۡرًا ٩ ﴾ [الطلاق: ٨ - ٩].

ومن سمات الدعوة إلى الله الناجحة القدرة على تغيير المنكر..

ومجتمعاتنا اليوم في أشد الحاجة إلى تعاليم السماء ووحي الله لما نرى من تفكك الجماعات وإثارة روح العداوة والبغضاء بين أفرادها وتغيير ذلك ليحل محلها في هذه المجتمعات الصفات الطيبة التي منها التعارف والتواصل والتواد والتراحم: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ ﴾ [المائدة: ٢] من خلال الدعوة إلى الله.

وقد أظهرت الإحصائيات العديدة انتشار الخوف والقلق الذي عم العالم حالياً.. وأصبح انتحار الشباب مرضاً نفسياً.. وأصبحت الحياة كلها وكأنها حرب ضروس على إنسان هذا العصر لا يرى من خلالها إلا كل شر.

والأرض مملـوءة جـورا مسخرة ::: لكـل عاتيـة في الأرض محـتكم

ولن يعيش الإنسان في هذا العالم المعاصر في أمن وأمان مبتعداً عن العداوة والبغضاء وعن التهديد بشبح الحرب إلا بالرجوع إلى تعاليم السماء والتمسك بدستور الله والالتزام بشريعة الإسلام وفق لما جاء بها الداعي الأول محمد رسول الله ﷺ، وبما كان عليه سلفنا الصالح رضي الله عنهم أجمعين.

ولذلك ورد في الحديث الشريف الذي رواه أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى..» قيل : ومن يأبى يا رسول الله ؟ فقال ﷺ : «من أطاعني دخل

الجنة ومن عصاني فقد أبى» (رواه البخاري).

وجاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

وقال تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ ﴾ [النساء: ٨٠].

وحث على الاستجابة لما يدعو فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤]، واعتبر طاعته طاعة لله واتباعه حباً لله: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠]، وقال أيضاً : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٣١].

* * * * *

الفصل الثاني:
حقيقة الدعوة إلى الله

الدعوة لغة: من الدعاء:

والدعاء إلى شيء منه هو الترغيب فيه والحث عليه، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن ﴾ [يونس: ٢٥] أي يرغب في دار السلام وهي الجنة، وهي بمعنى الإخبار والتجمع يقال دعا المؤذن.

ويقال تداعوا عليه: أي تجمعوا منه الدعوة إلى الطعام أي الاجتماع عليه [١].

يقال: دعا يدعو فهو داع، والمرة منه دعوة بمعنى النداء، يقال دعا فلان فلانا إذا ناده واستدعاه.. فتكون الدعوة لغوياً: الصيحة والنداء.

والدعاء إلى الشيء بمعنى الحث على قصده وهذا هو ما فضله الشيخ علي محفوظ في تعريفه للدعوة [٢].

والدعوة إلى قضية يراد إثباتها أو الدفاع عليها سواء كان حقاً أو باطلاً [٣].

أ) **فمن الباطل**: ما حكاه القرآن عن يوسف عليه السلام في قوله تعالى:

﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ ﴾ [يوسف: ٣٣].

وفي الحديث ورد قول الرسول ﷺ للأوس والخزرج حين اصطفوا للقتال: «أبدعوى الجاهلية تدعون وأنا بين أظهركم»..

ب) **ومن الحق**: قوله تعالى: ﴿ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّ ﴾ [الرعد: ١٤].

وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٥﴾ ﴾ [يونس: ٢٥].

وفي كتاب نبينا عليه السلام إلى هرقل: «إني أدعوك بدعوة الإسلام»، أي بدعوته.

---

(١) انظر القاموس المحيط للفيروز أبادي؛ جـ٣ ص٣٢٩.
(٢) انظر كتاب هداية المرشدين؛ علي محفوظ..
(٣) انظر: علل وأدوية؛ للشيخ محمد الغزالي ص١٦٥.

وكما أن هناك دعوة إلى الجنة فقد تكون الدعوة إلى النار، كما في قوله تعالى على لسان مؤمن آل فرعون:

﴿ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ ﴾ [غافر: ٤١ - ٤٢].

والدعوة : هي المحاولة القولية والعملية لإمالة الناس إلى مذهب أو ملة.. وهذا ما اختاره د. علي غلوش تعريفاً للدعوة.

وجاء في المصباح المنير في مادة (دعا) دعوة الله أدعوه يعني الابتهال إليه والسؤال منه.

وعلى ذلك فإن إطلاق لفظ الداعية يشمل كل من يدعو إلى الهدى أو يدعو إلى ضلالة، ويؤكد ذلك قول رسول الله ﷺ : «**من دعا إلى هدىً كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً**».. رواه مسلم، كتاب العلم.

وفي الاصطلاح : يمكن تعريفها بأنها إعلام الناس برسالة سيدنا محمد ﷺ وتذكيرهم بأحكامها ببيان أحكامها ومنزلتها في دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة اقتداءً به ﷺ..

أو هي القيام بواجب البلاغ وراثة عنه ﷺ.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأحزاب: ٤٦]، أي داعياً إلى توحيد الله.

فالداعي : هو الذي يدعو إلى أمر ما والجمع دعاة ودعوات..والداعي والداعية واحد.. والهاء فيه للمبالغة.

فالداعية إذن هو المرء القائم بترغيب الناس في الإسلام وحثهم على التزامه بالوسائل المشروعة وهي بمثابة ندبهم لإنقاذ الناس من ضلالة كادوا يقعون فيها وتخليصهم منها..

يقول الإمام ابن القيم في كتابه مفتاح السعادة :

(والدعاة جمع داع كقاض وقضاة، وإضافتهم إلى الله للاختصاص أي الدعوة المخصصون به الذين يدعون إلي دينه وعبادته ومعرفته ومحبته.. وهؤلاء هم خواص خلق الله وأفضلهم عند الله منزلة وأعلاهم قدراً).

والداعي إلى الله هو الذي يحاول دعوة الناس بالبيان والعمل إلى الإسلام والى تطبيق منهجه واعتناق عقيدته وتنفيذ شريعته وانتشالهم من الضلالات والأهواء والشهوات وكل ما يحول بينهم وبين خالقهم.

وهذا يوضح لنا أن موضوع الدعوة هو الإسلام دين الله الخاتم أكمل وأشمل الرسالات من حيث الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقاً ومعاملة.. قال الله تعالى : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ [يوسف: ١٠٨]. وهذه هي رسالة الدعاة.

وفي العرف : الدعوة حث الناس على الخير والهدى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليفوزوا سعادة الدارين: الدنيا والآخرة.

جمهور المدعوين وأصنافهم : دعوة جميع الناس كل بحسبه باعتبار الإسلام رسالة سيدنا محمد ﷺ إلى الناس كافة.. ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

والمقصرون يدعون إلى صدق الالتزام.. والعصاة يدعون إلى ترك الذنوب والآثام، وهكذا.

قال ابن تيمية في تعريف الدعوة : (والدعوة إلى الله هي الدعوة إلى الإيمان به وبما جاءت به رسله وتصديقهم فيما أخبروا به وطاعتهما فيما أمروا) [١].

وعرفها بعض المعاصرين بقوله : (هي تبليغ الإسلام الناس وتعليمه إياهم وتطبيقه في واقع الحياة) [٢].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية؛ جـ ١٥، ص ١٥٧.

(٢) انظر: المدخل إلى علم الدعوة، ص١٧.

وأوجز الطبري القول وأبلغ في المعنى حين قال عن الدعوة : (هي دعوة الناس إلى الإسلام بالقول والعمل) [1].

وبذلك يمكن التوسع في توضيح موضوع الدعوة فيما عرف بالأصول الثلاثة كما جاء به شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب في كتابه : الأصول الثلاثة وأدلتها [2] وهي معرفة الله ومعرفة نبيه، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة.. حيث أنها الأساس في بناء العقيدة وموضوع الدعوة الإسلامية.

* * * * *

(١) تفسير الطبري (٥٣/١١).
(٢) انظر: الأصول الثلاثة وأدلتها، محمد بن عبد الوهاب، ص ٣.

الفصل الثالث :

الأصل الأول : الإيمان بالله رب العالمين (التوحيد)

وإن المسلك السهل والسليم للبحث عن الإيمان بالله تعالى أي عن وجوده والتصديق به عز وجل رباً وإلهاً هو مسلك احترام العقل البشري. وقبول أحكامه التي يصدرها على الأشياء نفياً أو إثباتاً وجوداً أو عدماً ومن ذلك حكمه الواضح والصريح بوجود الباري عز وجل وبوجوب معرفته وطاعته والتقرب إليه والأخذ بهدايته.

ولنسمع إليه - أي العقل - وهو يورد أدلته؛ إنه يقول بمنطقه السليم : إن السماء التي تظلنا ونشاهدها بحواسنا ونراها بأم أعيننا.. هذه السماء بقول العقل : إنها موجودة فعلاً ولا سبيل إلى إنكارها بحال من الأحوال: فمن أوجدها ؟؟

ويقول أيضاً : هذه الأرض التي نعيش عليها وهي موجودة فعلاً ولا معنى لإنكارها أبداً فمن أوجدها؟ ويقول : وهذه الكائنات الحية من أرقاها وهو الإنسان إلى أدناها.. من أوجدها ؟

إن العقل يقول : ابحثوا عن الموجد.. عن الخالق.. عن الرازق.. عن المدبر.. عن المنظم.. عن المسخر.. عن خالق الكون واهب الحياة لكل ذي حياة - سألتها عنه حال وصول الأجل.

وحيث أنه لا يوجد موجوداً بغير موجد: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الطور: ٣٥]، فهل يعقل أن يقال أن الإنسان خلق نفسه بنفسه أو يقال عنه أنه خلق غيره..

حينئذ لا يكون أمام العقل إلا القول : بأن الخالق لكل شيء من العدم.. الرازق الذي يجب أن يقدس ويعبد ما هو إلا الله وحده.. ويظهر بطلان قول الملاحدة : بالطبيعة.. أو بالصدفة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [البقرة: ٢١].

حينئذ يجب التعرف إليه سبحانه وتعالى.. بالعقل والنقل وهي مراتب يترقى فيها الناس: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر: ٢٨]. وهم الذين يعرفونه عن طريق :

- قانون العلة (السببية)
- قانون الوجوب
- قانون الحدوث
- قانون النظام
- قانون العناية بالإنسان

ومن الناس من يتعرف على الله جل وعلا بالهداية الدينية عن طريق أنبيائه ورسله عليهم السلام وبما أوحاه الله لهم من كتب وما ورثوه من ذلك للناس والعلماء..

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [فاطر: ٣]. ووظيفتنا التذكير بجلال الله والتخويف منه.

كما يجب التعرف على أسماء الله تعالى وفي صفاته وفي أفعاله :

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فلله أسماء كثيرة وأشهرها لفظ الجلالة.. ﴿ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الحشر: ٢٢ - ٢٤].

والمؤمنون المهتدون يؤمنون بأسماء الله تعالى ويصفونه بصفاته أي بكل ما وصف به نفسه في كتابه الكريم وعلى لسان رسوله ﷺ غير مشبهين صفاته بصفات المخلوقين ولا مؤولين لها ولا معطلين مع اعتقادهم بأن الله ليس كمثله شيء وبالعجز الكامل في إدراك كنه ذاته تعالى أو كنه صفاته الذاتية والفعلية على حد سواء.

ومن هنا كان التوحيد ثلاثة أقسام :

توحيد في الذات والأسماء والصفات: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ [الإخلاص: ١ - ٤].

وتوحيـــد في الربوبيـــة : وهي اختصاصه تعالى وتفرده بالخلق والرزق والتدبير لسائر الخلق والملكوت.

وتوحيـــد في الألوهيـــة: أي في العبادة وهو اختصاصه تعالى بسائر العبادات دون شريك، وهو مضمون كلمة (لا إله إلا الله) التي جاء بها خاتم النبيين والرسل ودعا إلى قولها واعتقادها بإخلاص ولم يطالب بغيرها طيلة عشر من السنين، ومعنى لا إله إلا الله أي لا معبود بحق سواه خالق كل شيء، فهو الغني عن كل شيء وكل شيء محتاج إليه.

لا إله إلا الله تقتضي بل توجب المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات :

إن مدلول كلمة لا إله إلا الله : الإيمان بالله وحده بأن يعبد ولا يشرك به شيء من خلقه والكفر بكل طاغوت وإطاعة أوامره وطاعة رسوله كما قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

فلا يجوز دعاء غيره أو التوسل والتشفع بدونه قال تعالى :

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [غافر: ٦٠].

ولا يكتمل الإيمان بأركانه الستة التي جاءت بها الآية : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وينبغي متابعة التذكير بجلال الله وروائع الحكمة وبالغ العظمة في تصريفه لخلقه وإحسانه لصنعته مع الربط بين تلك المشاهد المادية ومشاهد الخلق والموت والبعث والحديث عن السماء وما فيها والأرض وما عليها، ومن ذلك ما قاله نوح عليه السلام لقومه: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [نوح: ١٣ - ٢٠].

الركن الثاني من العقيدة : الإيمان بالملائكة :

وجوداً وخلقاً كما أخبر الله تعالى كذلك في المقابل الجان والشياطين: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وفي قوله: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١٣٦]. فالإيمان بالملائكة والجن والشياطين وسؤال القبر ونعيمه وعذابه، والإيمان بالبعث واليوم الآخر من السمعيات التي يجب أن يعتقدها المؤمن.

والملائكة خلق عظيم خلقهم الله من النور وعددهم كثير لا يعلمه إلا الله لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.. يسبحون الليل والنهار لا يفترون.. لا يأكلون ولا يتغوطون حياتهم التسبيح.. أخبر الرسول ﷺ عن مادة خلقهم فقال :

«خلقت الملائكة من نور.. وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصفكم به» (رواه مسلم ٨/٣٣٧).

والملائكة يتفاضلون في القرب من الله تعالى وعلو المنزلة وأكثرهم تفاضلاً : الملائكة المقربون ومنهم :

حملة العرش : ﴿ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحاقة: ١٧].

ومنهم الكروبيون : ومنهم غير ذلك وأفضلهم جبريل الروح الأمين.. وميكائيل ملك المطر والنبات، وإسرافيل.. وعزرائيل ملك الموت.. وخدم الجنة لا يقلون عن ثمانين ألف خادم والزبانية الموكلين بالنار وهم تسعة عشر ملكاً ورئيسهم يدعى مالكاً.. قال الله تعالى: ﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الزخرف: ٧٧ - ٧٨].

والكرام الكاتبون : ﴿ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الانفطار: ١٢].

والحفظة : ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الرعد: ١١].

والملك الموكل بالرحم – وملك الجبال – والملائكة السياحون – وملائكة الدعاء – وملائكة العروج.

﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ ﴾ [المرسلات: ١ - ٦].

والصافات.. والزاجرات.. فالتاليات. والنازعات.. والناشطات.. فالمدبرات.. فالمقسمات.....

وفي الحديث : «أطت السماء وحق لها أن تئط ما من موضع أربع أصابع إلا عليه ملك واضع جبهته ساجداً لله تعالى».. رواه أحمد (٧٣/٥)، والترمذي وابن ماجه والحاكم..

والواجب معرفته من الملائكة عشرة وهم : جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وعزرائيل ورضوان خازن الجنة، ومالك خازن النار، وكاتبا الأعمال الرقيب والعتيد، وسائلا القبر؛ منكر ونكير.

أما الجان فهم غير أولاد إبليس (الشياطين) منهم الصالحون ومنهم دون ذلك.

والركن الثالث من العقيدة : الإيمان بالكتب الإلهية :

وعلى رأسها القرآن الكريم حيث نزل على سيدنا محمد ﷺ..

وقد ذكر القرآن من الكتب السابقة : صحف إبراهيم وصحف موسى وثلاثة كتب هي: توراة موسى، وزابور داوود، وإنجيل عيسى عليهم السلام..

حيث جاء في سورة الأعلى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأعلى: ١٨ - ١٩].

وفي قوله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ ﴾ [الإسراء: ٥٥].

وفي قوله: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [الفرقان: ٣٥]. والكتاب هنا المراد به التوراة.

وقولـه تعـالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥].

وقولـه عـز وجـل: ﴿ الم (١) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ (٣) مِن قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٤) ﴾ [آل عمران: ١ - ٤].

ومعنى الإيمان بهذه الكتب أي الإيمان بالوحي بها للرسل من قبل الله حيث جاء في سورة الشورى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١) ﴾ [الشورى: ٥١].

أما الكيفية الثالثة : أن يوحي إليه بواسطة الملك وقد تمثل لـه الملك رجلاً فأحياناً كان جبريل عليه السلام يأتي رسول الله ﷺ على صورة دحية الكلبي فيبلغه عن الله ما أمره سبحانه وتعالى به.

أما الكيفية الرابعة : فهي الرؤيا الصادقة المنامية.. فكان رسول الله ﷺ لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.. والحديث أخرجه البخاري.

والكيفية الخامسة : يأتي الملك الرسول مثل صلصلة الجرس.. فأحياناً يوحي إليه بواسطة الملك ولا يرى الملك وإنما يعلم بمجيء وحي بظهور علامات تدل على ذلك كدويّ النحل أو صلصلة كصلصلة الجرس فيكلمه الله بالوحيّ.

أما الكيفيـــة السادســـة : أن يوحى إليه بواسطة الملك دون أن يرى الملك أو يكلمه.. وإنما يلقي الملك في قلبه ما أمره به من الوحي.

والكيفية السابعة : أن يوحى إليه بواسطة الملك وقد ظهر الملك على صورته التي خلقه الله عليها لـه ستمائة جناح لك جناح قد سد الأفق.

الركن الرابع من العقيدة : الإيمان بالأنبياء والرسل عليهم السلام :

قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤].

وإرسال الرسل داخل في الجائز في حق الله تعالى..

والرسول في اصطلاح الشرع هو ذكر من بني آدم أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه فمن يوحي الله تعالى إليه أصبح نبياً ومن أوحى إليه بالرسالة كان رسولاً.

ويميز بين النبي.. والرسول : فالنبي هو الإنسان الحر السليم من كل عيب الذي أوحي الله إليه بشرع يعمل به.. وقيل عددهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً كما جاء في الحديث الذي أوردناه.

الرسول هو الذي أرسله الله عز وجل ومعه كتاب لتبليغ ما أمر بتبليغه لقومه أما النبيّ فهو الذى أرسله الله تبارك وتعالى برسالة شفوية وعلى ذلك فكل رسول نبى وليس كل نبي رسول.

وعدد الرسل ثلاث مائة وثلاثة أو أربعة أو خمسة عشراً..

والواجب معرفته من المرسلين تفصيلاً خمسة وعشرون ورد ذكرهم في القرآن وعلى الخصوص في سورة النساء قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ ﴾ [النساء: ١٦٣].

فقد حوت هذه الآية عشرة أنبياء ورسل، أما آيات سورة الأنعام (٨٢-٨٧) فقد شملت نفس الأسماء للأنبياء وزادت عليهم..

قال تعالى: ﴿ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ كُلّٗا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحٗا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنعام: ٨٣ - ٨٧].

كما جاءت آيات أخرى عديدة مفصلة بأسماء الأنبياء الأخر السبعة إدريس وهود وشعيب وصالح وذو الكفل وآدم أول الأنبياء وسيدنا محمد خاتمهم عليهم

الصلاة والسلام [1].

قال الشـــاعـــر :

وتلك حجتنـــــا منـــهم ثمانيـــة ::: مـــن بعد عشر ويبقى سبعة وهـــم
إدريس هود شعيب صالح وكـــذا ::: ذو الكفل آدم بالمختار قد ختمـــوا

وقد سبق أن نوهنا عن أسماء الأنبياء أولى العـــزم وعلى رأسهم فى الفضل سيدنا محمد يليه في الأفضلية سيدنا إبراهيم فسيدنا موسى فسيدنا عيسى فسيدنا نوح: ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، والواجب في حق الرسل جميعاً عليهم الصلاة والسلام أربع صفات هي الصدق والأمانة والتبليغ والفطانة.. اختارهم الله سبحانه وتعالى على هذا الأساس: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج: ٧٥].

ومعنى الصدق في حقهم أنهم لا يكذبون في جميع أقوالهم، فهم معصومون والدليل على صدقهم المعجزة مثل إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله.. الخ من معجزات حسية كونية، أما رسولنا عليه السلام، فرغم ما جاء على يده من معجزات حسية كانشقاق القمر ونبع الماء من بين يديه وتسبيح الحصى في يديه وغيره.. إلا أنه ﷺ قال : «لا تنسبوا إليّ معجزة سوى معجزة القـــرآن»، وهي معجزة عقلية.. ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢٣ - ٢٤].

ومعنى الأمانة : في حقهم أن الله حفظ ظواهرهم وبواطنهم ولو في حال الصغر من التلبس بمنهي عنه، من ذلك ما رواه كل من البخاري ومسلم.. " أن النبي ﷺ كان ينقل معهم الحجارة للكعبة (لما أرادوا تجديد بنائها) وعليه إزاره فقال له العباس عمه : يا ابن أخي لو حللت إزارك فجعلته على منكبيك دون الحجارة.. قال : فجعله على منكبيه فسقط

(١) آدم في (٣٣) من سورة آل عمران وإدريس في ٥٦ من سورة مريم وهود في (٥٠) من سورة هود وصالح في (٧٣) من سورة الأعراف وشعيب في (٨٥) من سورة الأعراف وذو الكفل في (٨٥) من سورة الأنبياء ومحمد في (٤٠) من سورة الأحزاب..

مغشياً عليه فما رؤي بعد ذلك ﷺ عرياناً ".

ومعنى التبليغ : أنهم يبلغون الخلق ما أمروا بتبليغه قال تعالى : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [المائدة: ٦٧].

ومعنى الفطانة : أنه يمكنهم إقامة الحجج على خصمهم والتعبير عما في ضمائرهم بأوضح عبارة.. فمثلاً عندما حاج النمرود سيدنا إبراهيم :

﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وقد أوتي رسولنا كما جاء في الحديث الصحيح: «وأوتيت جوامع الكلم».

ومن ذلك فالمستحيل في حق الرسل جميعاً عليهم الصلاة والسلام أربعة : الكذب.. والخيانة.. والكتمان.. والبلادة.

والجائز في حقهم عليهم الصلاة والسلام : كل وصف بشري لا يؤدي إلى نقص في مراتبهم العلية مثل الأكل والشرب والسفر والمرض الخفيف والتزوج والبيع والشراء، فالأنبياء والرسل ليسوا آلهة ولا ملائكة وإنما بشر مثلنا أنعم الله بنعمة الوحي ليبلغوا رسالة الله للناس.

﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [إبراهيم: ١١].

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ [الرعد: ٣٨].

وقال : ﴿ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨].

وقال في سورة الفرقان: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان: ٢٠].

الركن الخامس للعقيدة : الإيمان باليوم الآخر :

والمراد باليوم الآخر أمران :

الأول : فناء هذه العوالم.. وانتهاء هذه الحياة بأكملها وأوله : الموت لكل حيّ بعد وفاة الأجل.

والثاني: إقبال الحياة الآخرة وابتداؤها بالبعث والحساب ثم بالجزاء والمثوى في الجنة والنار بعد الوقوف على الصراط.

والإيمان باليوم الآخر هو عبارة عن التصديق الجازم بهذه الغيبيات.

سؤال القبر :

وقد دل الكتاب والسنة على أن الموت ليس نهاية الإنسان وإنما هناك حياة برزخية تعقب الموت، حيث إذا وضع في القبر أتاه ملكان منكر ونكير فيسألانه من ربك ؟ وما دينك ؟ وما تقول في الرجل المبعوث فيكم؟

فيجيب المؤمن : ربي الله وديني الإسلام والرجل المبعوث فينا محمد ﷺ..

فيقول الملكان : انظر إلى مقعدك في النار قد أبدلك به مقعداً في الجنة فيراهما ثم يقولان له : نم نومة العروس.

وأما المنافق أو الكافر فيقول لا أدري.

فيقولان له : لا دريت ولا تليت ثم يصيبه ما قدر له من العذاب.

ويدل على سؤال القبر قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، والقول الثابت في الدنيا هو كلمة التوحيد.

أما عذاب القبر ونعيمه فهو حق أيضاً بدلالة الكتاب والسنة.. قال الله تعالى في شأن آل فرعون: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [غافر: ٤٦].

وكذا قولـه تعالى في قوم نوح: ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔاتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا ﴾ [نوح: ٢٥].

والفاء للتعقيب السريع مما يفيد دخولهم النهار عقب الإغراق بلا مهلة وليس ذلك إلا عذاب القبر لأن عذاب الآخرة لا يكون إلا بعد قيام الساعة.

وعلى نعيم القبر دل قولـه تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٩ - ١٧٠].

هذا إلى جانب الأحاديث المتواترة المعنى مثل قولـه ﷺ : «القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر الناس» [1].

وروي أن النبي ﷺ مر هو وأصحابه على قبرين فوقف عندهما وقال: «إنهما يعذبان وما يعذبان في كبير.. أما أحدهما فكان لا يستبرئ من بوله وأما الآخر فكان يمشي بين الناس بالنميمة» (صحيح البخاري : كتاب الطهارة).

هذا وقد تواتر عنه عليه الصلاة والسلام استعاذته من عذاب القبر واستفاض في ذلك في الأدعية المأثورة.

كما يجب أن يؤمن المؤمن ويعتقد في أشراط الساعة الكبرى كظهور المهدي والمسيح الدجال وتظهر على يديه خوارق العادات.. ونزول عيسى بن مريم عليه السلام وخروج يأجوج ومأجوج وخروج الدابة تكلم الناس تقول : يا فلان أنت من أهل الجنة وأنت يا فلان من أهل النار وطلوع الشمس من مغربها بعد موت سيدنا عيسى عليه السلام وإرسال الله ريحاً تقبض أرواح المؤمنين ويبقى الناس مائة سنة لا يعبدون الله تعالى.

ودليل ذلك قولـه تعالى: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ ﴾ [محمد: ١٨].

وقـال: ﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [النمل: ٨٢].

---

(١) انظر كنوز الحقائق للمناوي على هامش الجامع الصغير بنحوه جـ٢ ص١٢٨.

وقوله عز وجل: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ [الأنبياء: ٩٦ - ٩٧].

وعن نزول عيسى إلى الأرض قال: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا ﴾ [الزخرف: ٦١].

وفي السنة أخرج مسلم من رواية حذيفة بن أسد الغفاري رضي الله عنه قال :

" اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر فقال : «ما تذاكرون ؟» قالوا : نذكر الساعة.. قال: «إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات : فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم ويأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم» (صحيح مسلم ٨ ص ١٧٩).

أما العلامات الصغرى فهي كثيرة أوردتها الأحاديث مثل أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة يتطاولون في البنيان، وأن ترى الحفاة العراة برعاة رؤوس الناس..

فإذا ظهرت من هذه العلامات الكبرى علامة أغلق باب التوبة على الناس: ﴿ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾ [الطلاق: ٢].

بعد ذلك يأمر الله تعالى إسرافيل أن ينفخ في الصور بدء البعث وقيام الساعة فينفخ فيه نفختين وبالثالثة يصعق به كل شيء إلا من شاء الله كموسى الكليم وحملة العرش.. ثم يميت الله الملائكة ويفنى كل شيء إلا ثمانية وهي العرش والكرسي والجنة والنار وعجب الذنب والأرواح واللوح والقلم.

قال تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الزمر: ٦٨].

ويقول جل ذكره: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ﴿١٤﴾ فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحاقة: ١٣ - ١٥].

وحينئذاك يتغير ما نعرفه من الأوضاع والأنظمة ويزول ما يربط هذه الكائنات من قوى ونواميس..

يقـــول الله تعـــالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ ﴾ [الانفطار: ٢ - ٥].

ولا استحالة في ذلك لأن القادر الذي حكم بحكم الوجود ووضع لـه من القوانين من حقه وفي قدرته لا ريب أن يحدث تغييرات، وقد أثبت ذلك المعلم الحديث بما يعرف بالانفجار العظيم.

وبالنفخة الأولى في الصور وما تحدثه من هلاك ودمار شامل للكون كله إلا من شاء الله تقع الساعة..

يقـــول تعـــالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ ﴾ [الحج: ١ - ٢].

والبعـــــث :

كما يقول علماء العقيدة : هو إحياء الله الموتى وإخراجهم من القبور بعد جميع أجزائهم الأصلية [1].

جاءت بذلك الكتب السماوية جميعاً واهتم به الإسلام فأكد أحقيته في كثير من آيات الكتاب الكريم والسنة المطهرة حيث تجمع الأرواح في الصور ويأمر إسرافيل فينفخ فيه نفخة البعث..

قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ ﴾ [الحج: ٧].

وقولـــه تعـــالى : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ ﴾ [المجادلة: ٦].

وأول من تنشق عنه الأرض نبينا محمد عليه السلام ثم يساق الناس إلى المحشر.

قـــال تعـــالى : ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾ [التغابن: ٧].

---

(١) انظر: المقاصد؛ جـ٢ ص١٥٢، شرح البيهجوري على الجوهرة، ص٢٠٣.

وقال رسول الله ﷺ في حديث البخاري ومسلم واللفظ لـه :

«ما بين النفختين أربعون.. قالوا يا أبا هريرة : أربعون يوماً ؟ قال : أبيت.. قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيت.. قالوا: أربعون سنة؟ قال أبيت.. ثم ينزل من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل.. قال: وليس من الإنسان شيء إلا يبقى إلا عظماً (يفنى) إلا واحداً وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة» [1].

ما هو الحشر ؟

إن الحشر عبارة عن جمع الخلائق بعد بعثهم أحياءً في ساحة واحدة تدعى عرصات يوم القيامة، وذلك لفصل القضاء وهو الحكم فيما بينهم من أجل مجازاتهم.

قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وقال الصادق المصدوق كما في الصحيحين واللفظ لمسلم (٢٧٨) والبخاري (١٣٥/٨) واللؤلؤ والمرجان (٢٧٥/٣) : «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي فيها ليس فيها علم لأحد».

وجاء في الصحيحين أيضاً واللفظ لمسلم (١٧٦/٨) والبخاري (١٣٦/٨) واللؤلؤ والمرجان (٢٦٤/٣) : «يحشر الناس يوم القيامة حفاةً عراةً غرلاً»، قلت: يا رسول الله؛ النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال ﷺ : «يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعهم إلى بعض».

وقد جاء في الحديث الصحيح ففي مسلم (١٣٥/٨) عن المقداد بن الأسود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : «تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق.. فمنهم من يكون إلى كعبه ومنهم من يكون إلى ركبتيه ومنهم من يكون إلى حقويه (حضره) ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً.. قال وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه».

---

(١) انظر اللؤلؤ والمرجان جـ٣ ص٣١٥ والبخاري (١٥٨/٦، ٢٠٥) ومسلم ٢١٠/٨.

الشـــــفاعة :

ويشتد الكرب في الموقف فيستشفع الناس بآدم فنوح فإبراهيم فموسى فعيسى فيعتذرون إليهم فيستشفعون بسيدنا محمد ﷺ ويقول : أنا لها.. أنا لها.. فيشفع لهم ي فصل القضاء وهو المقام المحمود.. قال تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [المرسلات: ١١ - ١٥].

الحساب والميزان :

والحساب في اللغة العد وشرعاً : توقيف الله للعباد يوم القيامة على أعمالهم ثواباً وعقاباً.. إن خيراً فخير وإن شراً فشر.. ويتقدم الناس واحداً واحداً حيث ينصب الميزان للحساب..

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الانشقاق: ٧ - ١٢].

ويقول تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة: ٦ - ٨]، فيحاسبون إلا من ورد النص باستثنائهم، ويدخل الجنة خلق كثير من أمة النبي ﷺ من غير حساب وبعد الحساب يأخذ العباد الصحف وترد أمة المصطفى على حوضه الشريف ماؤه أبيض من اللبن وأحلى من العسل من شرب منه لا يظمأ بعده أبداً.. ثم يمرون على الصراط وهو جسر ممدودة على متن جهنم، أوله من الموقف وآخره على باب الجنة وأول من يمر عليه سيدنا محمد وأمته.

وقد سئل الإمام عليّ رضي الله عنه : كيف يحاسب الله الناس كلهم في وقت واحد ؟ فقال : كما يرزقهم في آن واحد يسألهم في آن واحد.

ولنؤمن بعدالة الحساب بوضع الموازين القسط: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

[٢] إقامة الشهادة على العباد :

قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النور: ٢٤].

وقال جل شأنه : ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [فصلت: ٢١].

وكذلك شهادة الأنبياء على أممهم.. قال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ [النساء: ٤١].

الجزاء : الثواب والعقاب :

ومن الأمور السمعية التي يجب اعتقادها الجزاء المترتب على الحساب ثم بعد ذلك المصير إلى جنة عالية قطوفها دانية وإما إلى نار حامية.

ويجب أن تعتقد أن الجنة والنار موجودتان الآن في الدنيا [١].

والجنة شرعاً : هي دار النعيم أعدها الله لإكرام عباده المؤمنين وإثابتهم، فهي دار للطائعين [٢]، ولها سبعة أبواب وخزنة من الملائكة بزعامة رضوان.

قال تعالى: ﴿ ۞ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

قال ابن القيم عن الجنة : ولها عدة أسماء باعتبار صفاتها ومسماها واحد باعتبار الذات[٣].

كما يجب الإيمان بأن الآيات التي تحدثت عما في الجنة من ألوان النعيم المادي دون تأويل أو تشبيه وهي كثيرة.. فقد جاء في الحديث الذي يرويه النبي ﷺ عن ربه.. قال الله عز وجل: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**» (رواه البخاري ومسلم).

---

(١) غاية المرام ص ٢٠٢ - ٢٠٣ شرح المقاصد جـ٢ ص١٦١؛ شرح العقائد النفيسة ص١٠٥ وما بعدها.
(٢) شرح العقائد النفيسة؛ تعليق الشيخ صالح شرف ص ١٠٤.
(٣) نفس المرجع السابق ص ١٠٤.

أما النـــــار :

فهي شرعاً : دار العقاب التي أعدها الله للكفار والعصاة [1].

وقد أخبر القرآن بأن لها سبعة أبواب وخزنة من الملائكة الزبانية عدتهم تسعة عشر.. فقال تعالى: ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُم جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الحجر: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ﴾ [المدثر: ٣٠ - ٣١].

وقد سميت بعدة أسماء منها جهنم وسقر والحطمة والهاوية والجحيم وسجيل ودار البوار.. والقول في تعددها كالقول في تعدد أسماء الجنة فهي مكان واحد تتعدد طبقاته ودركاته حسب ما يشير إليها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ [النساء: ١٤٥].

بعض أنواع طعامهم :

١ – الزقوم : قال تعالى: ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الصافات: ٦٢ - ٦٧].

٢ – الغسلين : قال تعالى: ﴿ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الحاقة: ٣٥ - ٣٧].

٣ – الضريع : قال تعالى: ﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ ﴾ [الغاشية: ٦ - ٧].

ومن شرابهم :

١ – الحميـــم : يصهر ما في بطونهم ويقطع أمعاءهم: ﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾ ﴾ [محمـــد: ١٥]. ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الحج: ١٩ - ٢٠].

---

(١) نفس المرجع والصفحة.

٢- مـــاء الصـــديد : ﴿ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ ﴾ [ابراهيم: ١٦ - ١٧].

٣- وماء المهل : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ ﴾ [الكهف: ٢٩].

الركن السادس للعقيدة : الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره والتسليم لله تعالى فيه :

والإيمان بالقضاء والقدر عقيدة من العقائد التي أسسها الإسلام على الإيمان بالله تعالى وبناها على المعرفة بذاته وصفاته كصفات العلم الواسع والإرادة الشاملة والقدرة الكاملة، فعلى هذه الصفات قامت عقيدة القضاء والقدر وكان الإيمان بها من مقتضيات الإيمان بالله وعنصراً من حقيقته المشرقة، ويؤكد هذا قول الرسول ﷺ :

«الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشـــره» (رواه مسلم ٣١/١)..

وهو أن تعتقد أن الله تعالى قدّر الخير والشر قبل خلق الخلق.. وأن جميع الكائنات بقضاء الله وقدره وخير الأمر وشره منه تعالى فهو الموجد لكل شيء، وإنما الأدب نسبة الخير لله ونسبة الشر إلى النفس أو الشيطان لا سبيل الإيجاد بل الإغواء كما جاء في سـورة الجـن الآيـة ١٠.. ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ ﴾ [الجن: ١٠].

ومن هنا صح لنا أن نعرف القضاء والقدر بأنهما : علم الله تعـالى الأزلي بكل ما أراد إيجاده من العوالم والخلائق والأحداث والأشياء وتقدير ذلك الخلق وكتابته في الذكرى الذي هو اللوح المحفوظ كما هو حين يقضي بوجوده في كميته وكيفيته وصفته وزمانه ومكانه وأسبابه ومقدماته ونتائجه بحيث لا يتأخر شيء من ذلك عن إبانه أو يتقدم ولا يبدل له في كميته بزيادة أو نقصان كما صرح بذلك القرآن الكريم في الآية ٤٣ من سورة فاطر بقوله: ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ [فاطر: ٤٣]. وفي قوله تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ

إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحديد: ٢٢]، وقولـه: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس: ١٢].

وقول الرسول ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف».. رواه الترمذي (قيامة/٥٩) وأحمد في المسند (٢٩٣/١).

وفي الحديث: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة قال وعرشه على الماء».. (مسلم ٥١/٨).

كما يجب الإيمان بالقضاء والقدر ويجب الرضا به والتسليم لله تعالى فيه، فإنه على وفق رضى وبناءً على مشيئته في حكمه وواقع على أساس تدبيره لملكه وخلقه.. وأنه ما من حادثة تحدث في الكون وإلا ولله تعالى حكمة عالية مقصودة كما جاء.. " لو اطلع أحدكم على الغيب لاختار الواقع".

وللرضا بهذا القضاء والتسليم بهذا القدر نتائج سارة وثمرات طيبة.. ففي الحديث القدسي عن الله سبحانه وتعالى: «من لم يرض بقضائي ويصبر على بلائي فليخرج من تحت سمائي وليطلب رباً سواي»..

ويجب أن نعلم أن القدر لا يعني الجبر.. وأفعال الإنسان داخلة في قضاء الله وقدره.. وقد أبطل الله تعالى الاحتجاج بالقدر سلفاً حين رد على المشركين زعمهم القائل بأن شركهم كان تنفيذاً لمشيئة الله تعالى وقضائه فقال: ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

ومن ثم فالقضاء والقدر لا يتنافى مع العمل.. قال تعالى: ﴿ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الحج: ٧٧]. ومن شأن الإيمان بالقضاء والقدر أن يصلح نفس الإنسان ويجعلها تستقبل الحياة بأفراحها وأطراحها وتستقبل أحداثها بثبات واتزان واعتدال فلا يأخذها الغرر إذا أصابها خيراً ولا يستبد بها الجزع والحزن واليأس والقنوط إذا نزل بها مكروه أو شر وحينئذ يردد صاحبها : الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه.

خاتمة المقصد :

١- لعله قد اتضح لنا أن هذه الأركان الستة التي جاء بها الحديث النبويّ الشريف: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره»، وما يترتب عليها من حب الله تعالى وتعظيمه وخشيته والإنابة عليه ومعرفة أسمائه وصفاته.

وحب رسوله عليه الصلاة والسلام وتعظيمه وطاعته والاقتداء به: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر: ٧].

٢- فالإيمان بالملائكة : وسيلة إلى الاعتبار بطاعتهم: ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦]، كما أن ذلك وسيلة للاستحياء منهم والاستئناس بهم لعلم المرء بأن الكرام الكاتبين عن يمينه وعن شماله لا يفارقونه كما أنه وسيلة إلى معرفة عظمة الله تعالى فيهم وقدرته عليهم: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ﴾

[النحل: ٥٠].

٣- كما أن الإيمان بالكتب وسيلة إلى الإيمان بالله تعالى ومعرفة علمه وأسمائه ووعده ووعيده.. كما هو وسيلة إلى تصديق الرسل والرسالات الذين أرسلوا بها وأنزلت عليهم مما يثمر قوة الإيمان بالله تعالى ومعرفته.

٤- الإيمان بالرسل وسيلة إلى تطبيق شرائع الله تعالى وتدركها واكتمالها في الإسلام الدين الخاتم.

٥- والإيمان بالله واليوم الآخر وسيلة إلى فعل الخيرات وترك المنكرات رغبة فيما عند الله من خيري الدنيا والآخرة والرهبة من عقابه والخوف من عذابه.

٦- الإيمان بالقدر وسيلة إلى الصبر والتحمل والطمأنينة والسكون والتسليم لقضاء الله تعالى وقدره وما الإسلام سوى الاستسلام لمشيئة الله تعالى والتسليم لقضائه وقدره.

ولا يجوز الفصل بين هذه الأركان وبين الإيمان بالله سبحانه وتعالى ومعرفته جل وعز كما يجب أن يكون.

* * * * *

الفصل الرابع:
الأصل الثاني من الأصول الثلاثة
الإيمان بأن محمداً ﷺ نبيّ الإسلام
وخاتم النبيين والرسل

في الحديث الشريف: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً» رواه مسلم وأحمد والترمذي عن العباس رضي الله عنه..

فيجب على كل مسلم التعرف عليه ﷺ وعن صفاته ومعجزاته ونبوءاته وبشارات وكل ما يتصل بسيرته مما لا يقبل الشك على أن محمداً رسول الله ﷺ وخاتم الأنبياء والرسل.

التعريف به ﷺ :

نسبه :

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصيّ بن كلاب بن كعب بن مرة بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانه بن خزيمة ابن مدركة بن إلياس بن مضر بن معد بن عدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

نشأته :

وُلد ﷺ بمكة بدار أبي يوسف.. ولدته آمنه بنت وهب بن زهرة بن عبد مناف بن قصي بن كلاب.. ولدته صبيحة يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول عام الفيل الموافق لأغسطس عام (٥٧٠) ميلادية ومات والده عبد الله وهو حمل في بطن أمه فنشأ يتيماً وكفله جده عبد المطلب وماتت والدته آمنة وهو ابن ست سنين وحضنته أم أيمن جارية أبيه ومات جده فكفله عمه أبو طالب وهكذا ولد وعاش يتيماً ليصنعه الله على يديه.

زواجه وأولاده :

ولما بلغ الخامسة والعشرين من عمره ﷺ تزوج بخديجة بنت خويلد إحدى شريفات قريش فأنجب منها ولدين هما : القاسم وعبد الله ماتا صغيرين وأربع بنات هن فاطمة الزهراء وزينب ورقية وأم كلثوم رضي الله عنهم.

ولم يزاول عليه السلام في هذه الفترة من عمره سوى رعي الغنم والتجارة حيث خرج معه عمه مرة إلى الشام وخرج بعد ذلك في تجارة لخديجة فربح لها ربحاً عظيماً، وعن عند قومه بأفضل الأخلاق وأطيب الشمائل ولقب بالأمين، وقد أقسم الله في مطلع نبوته على أنه على خلق عظيم في مطلع سورة القلم وهي أعظم شهادة بدماثة خلقه حيث قال: ﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم: ١ - ٤].

عناية الله به :

ومن ذلك حادثة شق الصدر وهو صغير في بادية مرضعته حليمة السعدية وبذلك فقد حماه ربه من كل ما يلوث نفسه أو يعكر صفاء روحه إعداداً له لحمل رسالته إلى خلقه.. فلم يشرب خمراً ولم يلعب قماراً ولا ميسراً ولم يسجد لصنم قط ولم يظلم أحداً في عرض ولا مال ولا دم.

وقد روى البيهقي عن محمد بن إسحاق عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمون به إلا ليلتين كلتاهما عصمني الله عز وجل فيهما.. قلت ليلة لبعض فتيان مكة ونحن في رعاة غنم أهلها فقلت لصاحبي : أبصر لي غنمي حتى إذا دخلت مكة أسمر فيها كما يسمر الفتيان.. فقال: بلى.. قال: فدخلت حتى جئت أول دار من دور مكة فسمعت عزفاً بالغرابيل والمزامير.. فقلت ما هذا؟ قال تزوج فلان بفلان.. فجلست أنظر وضرب الله على أذني فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس فرجعت إلى صاحبي.. (وذكر أنه حصل له مرة أخرى فتم له مثل الذي حصل في الأولى).. ثم قال : فوالله ما هممت ولا عدت بعدهما بشيء من ذلك حتى أكرمني الله عز وجل بنبوته».

وقد رأينا فيما سبق كيف ستره الله وهو ينقل الحجارة في إعادة بناء الكعبة مع قومه.

نبوته وبعثته :

وعلى رأس الأربعين جاءه جبريل في غار حراء بعد أن كان قد حبب إليه الخلاء في شهر رمضان وقال له : اقرأ ثلاثاً.. فقال : ما أنا بقارئ وفي الرابعة قال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ ﴾ [العلق: ١ - ٣].

فذهب بها إلى خديجة زوجه ترجف بوادره وهو خائف على نفسه وهي تقول له: كلا ما يخزيك الله أبداً.. إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرئ الضعيف وتعين على نوائب الحق.

وانطلقت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل وكان قد تنصر وعمى فقالت له خديجة : اسمع من ابن أخيك فأخبره الرسول ﷺ ما رأى فقال له ورقة: هذا الناموس الذي كان ينزل على موسى.. ليتني كنت فيها جذعاً إذ يخرجك قومك، فقال: أومخرجي هم ؟ قال: نعم.. لم يأت رجل بما جئت به إلا عُودي وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً.. ثم لم يلبث ورقة أن توفيَ..وفتر الوحيَ.. أخرجه البخارى في أول كتابه (١/٥، ٦)، ومسلم (١/٩٧، ٩٨)، واللؤلؤة (١/٣٢).

وبعد فترة فتر فيها الوحيَ تبدى له جبريل في صورته الملائكية ونزل عليه قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥ ﴾ [المدثر: ١ - ٥].

بدء الدعوة :

وبدأ ﷺ دعوته إلى الإيمان بالله ورسوله وكتابه وتوحيده في عبادته..

بدأها دعوة فردية.. وتلقى هو ومن آمن به صنوفاً من الأذى وأنواعاً من الاضطهاد فأمر أصحابه بالهجرة إلى الحبشة حيث كان فيها النجاشي ملكاً لا يظلم.. ثم إلى المدينة.. كما حوصر هو وأسرته الشريفة والمؤمنون من بني هاشم.. حوصروا في شعب أبي طالب ثلاث سنوات جاعوا فيها جوعاً شديداً أكلوا معه ورق الشجر، وفي هذه الأثناء توفيت أم المؤمنين خديجة، كما توفي عمه أبو طالب وكانا يحميان الدعوة حتى

أنه بموتهما سمي هذا العام عام الحزن.

وفي نهاية السنة العاشرة من بعثته ومطلع الحادية عشر أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى بالشام ثم عرج به ﷺ إلى الملكوت الأعلى حتى بلغ سدرة المنتهى عند جنة المأوى، وفي هذه الأثناء فرض عليه وعلى أمته خمس صلوات بخمسين درجة في الأجر..

ومكث بمكة ثلاث عشرة سنة يدعو ويتحمل الأذى في سبيل الدعوة..

وفي هذه الأثناء عقد ﷺ مع بعض رجالات الأوس والخزرج اتفاقية تنص على أن هؤلاء الرجال يحمون من يهاجر إليهم من المؤمنين مما يحمونه به أنفسهم وأموالهم وسميت ببيعة العقبة الأولى.. وتمت عندها أخرى فسميت بيعة العقبة الثانية.. على أثرها هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة وعمل بها على بناء دولة الإسلام وتوالى نزول الشرائع.

ولم يقبض رسول الله ﷺ يوم الاثنين من شهر ربيع الأول إلا وقد اكتمل نور الإسلام ونزل قول الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

الحاجة إلى نبوته ﷺ :

سبق أن أشرنا إلى أن الله سبحانه وتعالى تعهد عباده منذ أن خلقهم بالأنبياء والرسل الذين يرشدونهم إلى طريق الحق والهدى ويوضحون لهم الحقائق الغيبية.

وكما كانت الحاجة ماسة إلى النبوات والرسالات السابقة كانت أيضاً في حاجة إلى النبوة الخاتمة والرسالة العامة التي جاء بها نبينا محمد صلوات الله عليه وسلامه عليه.

فقد كثر الجهل وعبادة الأصنام وعمت بين الناس في الجزيرة العربية كثير من المفاسد كشرب الخمر، وسفك الدماء، ووأد البنات، وسبي النساء، وسلب الأموال، وقيام الحروب بين القبائل العربية لأتفه الأسباب، وبلغ الظلم الاجتماعي حداً لا يطاق..

وباختصار كان العالم في ظلمات بعضها فوق بعض، وكان لابد من منفذ يبعث من قبل العناية الإلهية.. وكانت الحالة الإنسانية تستدعي ظهور نبيّ جديد يأتي برسالة توضح العقيدة الصحيحة وتضع المبادئ الإنسانية العادلة، وتوضح سبل السعادة والحياة الفاضلة، وترسي أسساً للعلاقات بين الأمم والشعوب.. وقد بلغت الإنسانية مرحلة الرشد فكانت الرسالة الخاتمة التي جاء به نبينا ﷺ رسالة عامة للإنسانية جمعاء.. رسالة خالدة إلى يوم الدين.

الأدلة على صدق نبوته (المعجزات) وهي نوعان :

١- المعجزات الكونية الحسية المخالفة للسنن الطبيعية التي وضعها الله في الكون:

وقد وضع لنبينا ﷺ الكثير كانشقاق القمر بدعوته، كما في قوله تعالى: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ ﴾ [القمر: ١].

ومنها نبوع الماء من بين أصابعه لوضوء جيشه، وتسبيح الحصى في يده حتى سمع الحاضرون، وحنين الجذع إليه حتى التزامه، ومجيء الشجرة إليه بأمره ورجوعها بأمره إلى مغرسها وشفاء المرضى وإبصار الأعمى[1]، فقد رد عين قتادة حيث تدلت على على وجنته يوم أحد فردها ومسح عليها فكانت أحسن.

ومنها معجزاته الحسية : تكثير الطعام يوم الخندق حتى أطعم بصاع من شعير وجدي صغير جيشاً كبيراً الألوفات، وتسليم الشجر والحجر عليه على مرأى من الناس ومسمع وعشرات المرات.. والإسراء والمعراج، وإخباره بالغيبيات الكثيرة فكانت كما أخبر مثل: ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَ ﴾ [الروم: ١ - ٤] حتى أن أبا بكر هن على ذلك وكسب الرهان.

٢- ورغم ذلك فالمعجزة الكبرى لـه ﷺ هي القرآن : معجزة عقلية:

فالقرآن الكريم وقد حوى أعظم تشريع واشتمل على قدر من العلوم الإلهية والعديد

(١) انظر البغدادي: أصول الدين ص١٨٢.

من الحقائق العلمية كنظام الزوجية، حيث يشير قوله تعالى في سورة يس: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [يس: ٣٦]، كما حوى العديد من القوانين الكونية كعملية إنزال المطر المشار إليها في الآية ٤٨ من سورة الروم بقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ﴾ [الروم: ٤٨].

كما تعرض لبدء الخليقة وذكر من قصص الماضين وإخبار السابقين الشيء العجيب وهذا الكتاب يأتي به أميّ يتحدى كل الخلق على الإتيان بمثل أو بعشر سورة من مثله أو سورة واحدة منه، فعجز العرب وهم أساطين البلاغة واللغة أن يقبلوا هذا التحدي.

وهذا التحدي لازال قائماً إلى يوم القيامة: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢٣ - ٢٤].

وهذا أحد زعماء قريش وهو الوليد بن المغيرة يسمع القرآن من رسول الله ﷺ فلا يجد أمامه سوى أن ينطق فيقرر وهو من ألد أعداء الإسلام (إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وما يقول هذا بشر)، والفضل ما شهدت به الأعداء.. هذا فضلاً عن براءته من الاختلافات والتناقضات: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

ومن أدلة نبوته ﷺ ما يلي :

أ) شهادة الكتب السابقة له على نبوته وتبشير الأنبياء السابقين بها، فقد جاء في إنجيل يوحنا :

١- إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي وأنا أطلب (من الأب) فيعطيكم معزيا (فارقليط) آخر ليمكث معكم إلى الأبد [١].

(١) الباب الرابع عشر الفقرتان (١٥، ١٦).

٢- كما ورد في نفس الإنجيل ص ١٥ عدد ٢٦ " ومتى جاء المعزى الذي سأرسله إليكم من الأب روح الحق الذي من الأب ينبثق فهو يشهد لي ".

وعبارة المعزى الواردة بالنص ليست دقيقة لأن أصلها في اليونانية التي ترجمت منها هذه الأناجيل مكتوبة (بيركليتوس)، وفي التراجم العربية المطبوعة سنة ١٨٢١، ١٨٣١، ١٨٤٤ في لندن نجدها (فارقليط) وترجمتها محمد أو أحمد والذي جاء به القرآن في الآية ٦ من سورة الصف: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ [الصف: ٦].

٣- وفي الباب السادس عشر الفقرة ٧ " إنه خير لكم أن أنطلق لأني إن لم أنطلق لم يأتكم المعزى (الفارقليط) ولكن إن ذهبت أرسلته إليكم.

٤- وفي الباب الرابع عشر الفقرة (٦) (والفارقليط) روح القدس الذي يرسله (الأب) باسمي هو يعلمكم كل شيء وهو يذكركم بكل ما قلته لكم ".

وصدق الله العظيم القائل: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وفي التوراة في الطبعات القديمة : " وعن إسماعيل سمعتك ما أتاه بماء ماه) وهذا اللفظ الأخير عند المحققين من أهل الكتاب صريح في اسم النبي ﷺ (محمد)[1].

وجاء في سفر التيه من التوراة " جاء الرب من سيناء (يقصد موسى عليه السلام) وأشرق لنا من ساعير (يقصد عيسى عليه السلام) واستعلن من جبال فاران ومعه ألوف الأطهار (يقصد مكة الواقعة بين جبال فاران حيث يظهر سيدنا محمد ﷺ).

ب) شهادة علماء أهل الكتابين :

﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ ﴾ [الشعراء: ١٩٧].

" روى البخاري في صحيحه من كتاب الأنبياء عن أنس بن مالك : " أن عبد الله بن سلام بلغه مقدم رسول الله ﷺ المدينة فأتاه فقال: إني أسألك عن ثلاث لا يعلمهن إلا

(١) انظر كتابنا: لماذا أسلم هؤلاء الغربيون ص ٢٨٣.

نبيّ قال :

ما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه؟

قال رسول الله ﷺ : «أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب.. وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت.. وأما الشبه في الولد فإن الرجل إذا غشى المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه لهم.. وإذا سبق ماؤها كان الشبه لها..».

قال عبدالله بن سلام : أشهد أنك لرسول الله.. هذه شهادة عبد الله بن سلام أحد أحبار اليهود..

ومن المسيحية تكفي شهادة الملك الصالح أصحمة النجاشي عندما سمع من جعفر الطيار سورة مريم قال : إن هذا وما جاء به عيسى ليخرجان من مشكاة واحدة وأسلم قال: أشهد أنه رسول الله ﷺ وأنه الذي بشر به عيسى بن مريم [1]، وأرسل رسالة إلى رسول الله ﷺ قال فيها :

فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين.

ج) شهادة الحق عز وجل وملائكته :

وشهادة الله تعالى تنقسم قسمين؛ شهادة إخبار وشهادة معجزات..

قال تعالى: ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ ﴾ [النساء: ١٦٦].

ومن شهادة الإخبار : ما جاء في سورة الفتح: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾ [الفتح: ٢٩].

وفي سورة النساء أيضاً: ﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [النساء: ١٦٣].

---

(١) البداية والنهاية؛ لابن كثير، ١٨٩/٢.

وفي سورة الأحزاب: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ۝٤٦ ﴾ [الأحزاب: ٤٥ - ٤٦].

وفي سورة المائدة: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [المائدة: ٦٧].

ومن شهادة المعزات ما سبق ذكره.

النبي الخاتم.. والرسالة العالمية :

قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ۝٤٠ ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إني مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين».

ختم الله برسالته جميع الرسالات لذلك كان من الواجب على كل إنسان في هذا الوجود أن يؤمن به ويتبع ما جاء به من الحق والهدى تنفيذاً لقوله تعالى: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ ﴾ [التغابن: ٨]. وقال: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ومن السنة :

قال عليه الصلاة والسلام: «أنا العاقب فلا نبيّ بعدي».

فرسالته عليه السلام للناس كافة.. جنهم وإنسهم..

قال تعالى: ﴿ وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ ﴾ [النساء: ٧٩].

وقال: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ [سبأ: ٢٨].

وقال : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

فما حقيقة هذا الدين الخاتم.. دين الإسلام.. الأصل الثالث من أصول الإيمان ؟..

وما هي أركانه ؟.. وما هي خصائصه ؟.. ومقاصده ؟..

ذلك هو موضوع الفصل التالى من هذا الباب

* * * * *

الفصل الخامس :

الأصل الثالث من أصول الإيمان : موضوع الدعوة الإسلامية

الإسلام.. الدين العالمي.. دين الله الخالد

تعريف الإسلام :

الإسلام هو دين الفطرة:

١- (الإسلام أن تشهد أن الله إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت أن استطعت إليه سبيلاً)..

هكذا عرفه نبي الإسلام عندما جاءه جبريل ليسمع الحاضرون ويعلمهم أمور دينهم والذي رواه الترمذي وأحمد.

٢- الإسلام هو الخضوع والاستسلام للانقياد لله رب العالمين اختيارياً وليس إجبارياً وقسرياً، أو هو الخضوع لله رب العالمين ومظهره الانقياد لشرع الله الذي أوحاه إلى رسوله محمد ﷺ وأمره بتبليغه: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].

٣- الإسلام هو النظام العام والقانون الشامل لأمور الحياة ومناهج السلوك للإنسان التي جاء بها محمد ﷺ من ربه وأمره بتبليغها إلى الناس وما يترتب على اتباعها أو مخالفتها من ثواب أو عقاب.

٤- الإسلام هو مجموع ما أوحاه الله إلى رسوله محمد ﷺ وهو القرآن والسنة وفيهما جميع أحكام العقيدة والأخلاق والعبادات والمعاملات.

٥- أو أنه الأجوبة الصحيحة الحقة لثلاث أسئلة شغلت عقول البشر في القديم والحديث :

من أين جئنا ؟.. ولماذا جئنا ؟.. وإلى أين المصير ؟..

فعن السؤال الأول : أجاب: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ ﴾ [الطارق: ٥ - ٧].

وعن السؤال الثاني كانت الإجابة: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وعن السؤال الثالث يقول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾ ﴾ [الانشقاق: ٦].

٦- ومن تعاريف الإسلام أنه : **دعوة التوحيد الكبرى** التي بعث بها رسول الله محمد ﷺ لتكون نظام الإنسانية الكامل في حياتها الروحية والمادية في كل زمان ومكان.

٧- ويمكن تعريف الإسلام **ببعض صفاته اللاصقة** فتقول : الإسلام هو الروح الحقيقية للإنسان، والروح الهادي له في دروب الحياة، والشفاء الكافي لأمراض البشرية، والصراط المستقيم الذي لا يضل من سلكه.. قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقال: ﴿ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ﴾ [فصلت: ٤٤].

والغرض الذي نقصده من إيراد التعاريف المتعددة للإسلام هو أن يجد الداعي جملة من التعاريف يستطيع أن يختار منها ما يناسب حال المدعو من جهة مدى فهمه وثقافته وعلمه وسلامة فطرته [١].

لكنا نختار التعريف الأول الموضح لأركان الإسلام الخمسة بل ويشمل التعاريف الأخرى.

الركن الأول للإسلام : الشهادتان :

فكلمة (أشهد) تدل على معنى العلم والمعرفة والبيان وتتضمن معنى الإقرار والإذعان والاعتقاد، وفي الشهادة الأولى (أشهد أن لا إله إلا الله) يكون معنى التوحيد أي إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة، هو الذي يسمى بتوحيد الألوهية، كما يتضمن توحيد الربوبية ومعناه الاعتقاد بأن الله تعالى هو رب العالمين.

ومعنى الشهادة الثانية (شهادة أن محمداً رسول الله) العلم والتصديق والاعتقاد

(١) أصول الدعوة؛ للدكتور زيدان، ص ١٤.

الجازم بنبوة محمد ﷺ بالقول : عن طريق النطق بهذه الشهادة ولم وبالعمل بإقامة سلوك الإنسان على أساس ما جاء به قرآناً وسنة.. وأعظم دليل على نبوته هو القرآن معجزة الله الخالدة والاعتراف بنبوة محمد ﷺ إثبات لسائر النبوات ومن لوازم ذلك إطاعته: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ [الحشر: ٧].

وفي الحديث قوله عليه السلام : «أسعد الناس بشفاعتي من قال لا إله إلا الله خالصة من قلبه» [١].

الركن الثاني للإسلام : إقام الصلاة :

فهي عماد الدين، وهي الفارق بين المسلم وغير المؤمن وأنها من صفات المؤمنين والمتقين لا يجوز التفريط فيها على كل حال: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ﴾ [النساء: ١٠٣].

والصلاة بعد هذا تزكية للنفس وصلة للعبد وربه وتذكير مستمر له بعبوديته لله وبمعاني كلمة التوحيد، وهي تنهى عن الفحشاء والمنكر.. وهي قرة عين المسلم يفرغ إليها إذا ضاق الصدر كما كان يفعل الرسول عليه السلام.. وفي الحديث قوله عليه السلام : «بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة» [٢].

والركن الثالث للإسلام : إيتاء الزكاة :

وهي عبادة مالية تلي الصيام في ترتيب أركان الإسلام وفي الأهمية [٣].

وهي طهارة للمسلم من وراء البخل والشح وعبادة المال وإيثار الله على محبة المال والإسهام في تحقيق التكافل والتعاون المطلوب شرعاً بإعانة ذوي الحاجات.

والركن الرابع للإسلام : صوم رمضان :

والصيام عبادة مشروعة شكراً لنعمة البدن.. ففي الصيام إيثار لمحبة الله على

---

(١) رواه البخاري وورد في نيل الأوطار ٣٤١/١.
(٢) نيل الأوطار ٣٤/١.
(٣) انظر: نيل الأوطار للشوكاني؛ ١٣٥/٤.

شهوات الجسد وتعويد المسلم على معاني الإخلاص والإرادة والعزيمة والصبر..

وكل هذه معاني جليلة يحتاجها المسلم لتقوية الإيمان.

والركن الخامس للإسلام : حج البيت لمن استطاع إليه سبيلا :

والحج تربية عملية للمسلم، ففيه إظهار لعبودية المسلم لله وطاعته، وهو مؤتمر كبير موسع للمسلمين للتشاور في أمورهم.

خصائص الإسلام :

فللإسلام خصائصه التي تميزه عن غيره، فهو من حيث مصدره أنه من عند الله وهذه هي **الخصيصة الأولى.. ومعنى ذلك كماله وخلوه من النقائص** : والجهل والهوى والظلم تظهر فيه صفات الكمال لله سبحانه وتعالى، ومن ذلك العدل الذي يظهر في المساواة بين الناس في الحقوق لا فرق في الجنس أو اللغة أو الدين، كما يترتب على كون الإسلام شريعة من عند الله أنه يظفر بقدر كبير جداً من الهيبة والاحترام من قبل المؤمنين، ويكفي لبيان ذلك أن تحريم الخمر كان الكلمة واحدة وهي: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠] التي أحدثت في أتباعه قوة هائلة تفوق قوة الجيش والشرطة والقانون عند الغير عندما أرادوا منعه بالقوة والجبر، كما حدث في الولايات المتحدة الأمريكية.

والخصيصة الثانية للإسلام : أنه دين شامل لجميع شئون الحياة وسلوك الإنسان:

وأحكام الإسلام الثابتة لأفعال الإنسان وتصرفاته وعلاقاته مع غيره هي الوجوب والندب والتحريم والكراهة والإباحة والصحة والبطلان.

أما الأفعال التي تتعلق بها هذه الأحكام تسمى على التوالي : الواجب والمندوب والمحرم والمكروه والمباح الصحيح والباطل.

١- والواجب : هو ما ثبت قطعاً بدليل ظني كصدقة الفطر والأضحية وقراءة الفاتحة في الصلاة، فإن كلا منها ثبت بخبر الواحد وهو ظني الثبوت.

ويعرف أيضاً بأنه ما يمدح فاعله ويذم تاركه لكن ذم تارك الفرض.. ومن حيث العمل والتطبيق الواجب والفرض سواء وإنما يختلفان من حيث الاعتقاد فمن أنكر الفرض الثابت قطعاً بدليل قطعي كالإيمان بفرضية الصلاة والزكاة والصوم والحج من أنكر هذا يكفر ومن أنكر الواجب لا يكفر.

٢- **المندوب** : وهو ما فعله الرسول ﷺ وتركه أخرى كالبداءة باليمين في غسل اليدين في الوضوء ولبس النعل، ويعرف بأنه ما يمدح فاعله ولا يذم تاركه.. وللمندوب أسماء متعددة منها المستحب والنفل والتطوع والسنة.

٣- **المحرم** : وهو ما ثبت قطعاً بدليل قطعي كحرمة الزنا وحرمة السرقة وحرمة الخمر وحرمة الربا.. ويعرف بأنه ما يذم فاعله ويمدح تاركه.. من أنكره كفر ومن فعله عصا وفسق..

والمحرم نوعان : محرم لذاته كشرب الخمر وأكل الميت.

ومحرم لغيره : كأكل مال الغير.

٤- **المكروه** :

أ) المكروه تحريماً: وهو ما ثبت قطعاً بدليل ظني كلبس الحرير والتختم بالذهب للرجال.

وحكمه أن يمدح تاركه ولا يذم فاعله.

ب) المكروه تنزيهـــاً : وهو ما كان تركه أولى من فعله كلطم الوجه بالماء عند الوضوء.

وحكمه أن يمدح تاركه ولا يذم فاعله.

٥- **المبـــاح** :

هو ما لا يتعلق بكل من فعله وتركه ثواب ولا عقاب.

وهو لا يمدح على تركه أو فعله.

ويقال لـه : الحلال والجائز.

تقسيم الأحكام الفقهية من جهة المبنى الاصطلاحي :

أولاً : الأحكام الشرعية المتعلقة بالمعتقدات : كأركان الإيمان الستة كالإيمان بالله واليوم الآخر... أو كل ما يترتب عليه عدم الاعتقاد به كفر.. وهذه تسمى أصول الدين أو العقائد.

ثانياً : الأحكام الشرعية المتعلقة بعبادة الله تعالى من صلاة وصوم وزكاة ونحوها كالنذر واليمين.. وهذه تسمى (العبادات).

ثالثاً: الأحكام الشرعية المتعلقة بنظام العلاقة بين الناس وهذه تسمى (المعاملات): وهذه على أنواع :

أ) أحكام الأسرة من زواج وفراق وآثارهما وتسمى (الأحوال الشخصية).

ب) أحكام تتعلق بعلاقات الأفراد ومعاملاتهم كالبيع والإجارة والدهن والكفالة وتعرف حديثاً بالقانون المدني.

ج) أحكام تتعلق بالقضاء الدعوي وأصول الحكم والشهادة واليمين والبينات.

د) أحكام متعلقة بسلطان الحاكم والرعية وتعرف هذه (بالأحكام السلطانية - أو السياسة الشرعية).

هـ) أحكام متعلقة بعقاب المجرمين وتسمى (العقوبات) من حدود وقصاص وتعزير.

ز) أحكام تتعلق بتنظيم علاقات الدولة الإسلامية بالدول الأخرى في السلم والحرب وتسمى الآن بالعلاقات الدولية.

ح) أحكام تتعلق بموارد الدولة الإسلامية ومصارفها وتنظيم العلاقات المالية بين الأفراد والدولة.

ط) أحكام تتعلق بتحديد علاقة الفرد بالدولة من جهة الأفعال المنهي عنها.

رابعاً : أحكام الأخلاق وتسمى الآداب :

وهي المتعلقة بما يجب أن يتحلى به المسلم وما يجب أن يتحلى عنه كوجوب الصدق وحرمة الكذب والغدر والخيانة والتعاون على الشر والظلم ونحو ذلك.

وهذه كلها أحكام يتعبد بها الله سبحانه وتعالى إذ الكل داخل في مفهوم العبادة وهي كما رأيت شاملة لجميع شئون الحياة وسلوك الإنسان.

والخصيصة الثالثة للإسلام : العموم لجميع الناس:

أي أنه من حيث الأشخاص الذين يحكمهم عام لجميع البشر باق ولا يزال مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ [سبأ: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وحيث أن الشريعة الإسلامية كاملة تامة سدت كل ما لم تأت به الشرائع السابقة، وأكدت ما جاءت به هذه الشرائع السابقة، فلا حاجة ولا داعي لمجيء شريعة أخرى، فهي الرسالة الخاتمة الكاملة: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا ﴾ [المائدة: ٣].

قال تعالى في تعليل رسالة محمد ﷺ : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، والرحمة تتضمن قطعاً رعاية مصالح العباد ودرء المفاسد عنهم لإعلام البشر بأن تحقيق المصالح هو مقصود الإسلام، وأن الأحكام ما شرعت إلا لهذا الغرض، مثل: ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وقد شرعت الرخص عند وجود المشقات في تطبيق الأحكام، وشرع الطلاق عند استحالة الحياة الأسرة، وشرعت الدية في القتل الخطأ على عاقلة القاتل. وقاعدة لا ضرر ولا ضرار في هذه الأحكام العدل والمساواة بين كل الناس.

والخصيصة الرابعة للإسلام :

أنه من حيث نوع الجزاء الذي يصيب مخالفة أو زجره فجزاء أخرويّ بالإضافة إلى جزائه الدنيوي، فأحكام الإسلام ليست نصائح وإرشادات ونصائح خالية من الثواب

والعقاب.. ثواب يناله الملتزم بها.. وعقاب يصيب المخالف لها على درجات متفاوتة في العقاب والثواب.

وقد ترتب على الجزاء الأخروي يوم القيامة خضوع المسلم لأحكام الشريعة خضوعاً اختيارياً في السر والعلن خوفاً من عقاب الله وحتى لو استطاع الإفلات من عقاب الدولة التي توقعه في الدنيا على المخالف لأحكام الإسلام لأن العقاب الأخروي ينتظره ولا يستطيع الإفلات منه :

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾ [آل عمران: ٣٠].

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨].

وفي هذا وذاك أعظم ضمان لزجر النفوس عن المخالفة والعصيان ومنع الفساد عن الناس وعن الدولة ذاتها التي اتخذت الإسلام أساساً ومصدراً لتشريعها.

فمثلاً عقوبة الزنا أساسها رعاية الأخلاق ومنع إفسادها للفرد والأسرة والمجتمع كشيوع الأمراض واختلاط الأنساب وخراب البيوت والعزوف عن الزواج وما إلى ذلك.

وعقوبة السرقة في الدنيا وهي قطع اليد، ويرى البيهقي العلاج الحاسم لقطع دابر الاعتداء على أموال الغير وإشاعة الطمأنينة في نفوس الناس إذا ما قورنت بعقوبة السجن للسراق إذ الأخيرة ما ردعت وما قللت من حوادث السرقة.

وعقوبة التعامل بالربا واستساغته للظلم وفقدان التعاون الاجتماعي وانحلال المجتمع وفساده، ربما لا يكون هناك تشريع وضعي يزجره ولكنه في الآخرة ينتظر المتعامل به من الله عذاب عظيم.

وكذا عقوبة القتل العمد في الشريعة الإسلامية هي القصاص، أي قتل الجاني ولأهل المجني عليه أن يعفو ويتصالحوا مع القاتل على الدية وهذا تنظيم

كامل لهذه الجريمة لم يغفل جانب الطبيعة البشرية، كما لم يغفل جانب المجتمع ومصلحته والعمل على تماسكه وترابطه.

الخصيصة الخامسة للإسلام : الوسطية والتوازن :

مما يوجب التخفيف والتيسير ورفع الجرح فلن يشاد الدين أحد إلا غلبه..

فلما كان الإنسان مؤلف من مادة وروح وللمادة نظامها وعالمها الذي تقوم به، وللروح خصائصها الذي تحيا فيه والإنسان - وقد خلقه الله في أحسن تقويم فهو مطالب أن يكون له حياتان : حياة دية يؤدي بها ما لبدنه من الحقوق في حكمه ونظام وحياة روحانية يحياها وراء عالم المادة يؤدي بها من لروحه من الحقوق، فإذا أقبل الرجل على نفسه فقام بحق بدنه، وحق روحه.

وهنا تأتي وسطية الإسلام فتشرع للإنسان التوازن المعتدل بقوله تعالى : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [القصص: ٧٧].

وقوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأعراف: ٣١].

وينبغي أن نقدم الإسلام للناس بالتبشير والترغيب بدلاً من الترهيب والتخويف والتنذير دون دعوة متوازنة في وضع الترغيب والترهيب في مواقعهما الصحيحة..

يقول الله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

وقال: ﴿ لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأحقاف: ١٢].

وقال: ﴿ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩].

وقال: ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٩٧].

وفي سورة النمل يقول: ﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [النمل: ٢ - ٣].

فتقديم الترغيب على الترهيب هو الأصل في الدعوة إلى الله، وبذلك بدأ رسول الإسلام دعوته للكفار والمشركين والناس أجمعين.

وهو الحد الفاصل بين الرشد والهوى وهو الحد الذي يجب أن يقام عنده الحواجز بين حياة المادة وحياة الروح وهو حد الوسطية بين حاجيات البدن وبين متطلبات القلب [1]، بحيث يحال بين القلب وبين الهوى وتدارك الخطأ بالزهد في الشهوات وطلب الدنيا، وهذا رسول الله ﷺ يصوم ويفطر ويقوم الليل متهجداً ويرقد ويتزوج النساء [2]. ويبين لنا أن الإفراط مذموم ولو كان في إقبال العبد على حياته الروحية متناسياً متطلبات حياته الدنيوية وقال لعبدالله بن عمرو أن لله عليك حقاً وإن لبدنك عليك حقاً وإن لأهلك عليك حقاً، فالإسلام منهج وسط لأمة وسط وهو منهج متوازن بين الروح والجسم، وبين الدنيا والآخرة، وبين الفردية والجماعية، وبين الحرية والمسئولية، وبين المثال والواقع.

والخصيصة السادسة للإسلام :

أنه من حيث نزوعه إلى المثالية دون إغفال للواقع فهو دين مثالي يحرص على إبلاغ الناس أعلى مستوى ممكن من الكمال، لكنه في نفس الوقت دين واقعي لا يغفل عن طبيعة الإنسان الترابية وواقعه المعاش، وبهذا توازت استطاعة مع أحكام الله في سائر ظروفه وأحواله: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقال تعالى: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن: ١٦]. فالاستطاعة هي مناط التكليف، ولذلك لا يمكن أن يكلفه الشرع الإنسان فوق طاقته والإسلام دين الفطرة: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك: ١٤].

وهو في ذلك لا يغفل في مجتمع القدوة والسيرة العملية وقد تحقق ذلك كله في رسول الله ﷺ : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وإنما يجب أن تكون الدعوة حاضرة منسجمة مع الإمكانات والاستطاعات المتوفرة في مجتمعاً دينياً، والنصوص دالة على رفع الحرج والعسر عن هذه الأمة والتخفيف عنها:

﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج: ٧٨].

---

(١) القلب قد يطلق على العقل.

(٢) رواه البخاري عن أنس.

ولعل التدرج في أخذ الناس بأحكام التشريع وأمثلته الكبيرة الواردة في ذلك والدالة عليه وبيانها المتعدد في إجابات لكل سائل بحسب حاجته، ولعل لنا في التدرج في تحريم الخمر ما يؤكد لنا أن الحكم الشرعي والتكليف كان دائماً منوطاً بالاستطاعة وأن الشارع لم يقصد المشقة لذاتها في التكليف.

ويمكن القول هنا أن دراسة أسباب النزول للقرآن وسبب نزوله منجماً الذي يعني فيما يعني اعتبار المناسبات أو الحالات الاجتماعية أو الإشكالات التي تعرض لها المجتمع محل التنزيل فجاء النص معالجاً لها ليكون نموذجاً يجرد من الزمان والمكان ويولد في كل زمان ومكان، ذلك أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما يقول علماء الأصول.

لذلك يجب على الداعية الإلمام بها والتعرف عليها وبين ما جمعته الشريعة بين الثياب والمرونة في أحكامها.

ومن القضايا الجديرة بلفت النظر والتنبيه لها أن الاعتراف بالواقع لا يعني إقراره على ما هو عليه من الخطأ والتخلف والجهل والاستبداد والخضوع له والتنازل عن قيم الكتاب والسنة والعدول عن مثالية الإسلام ومنها الاعتدال الذي يعني عدم الإفراط والتفريط في أي شيء وإعطاء كل ذي حق حقه، فالاعتدال مطلوب حتى في العبادات وفي غيرها.

والمثالية في الإسلام تتصف بالشمول في جميع الأحوال وفي شمول رعايتها لجميع المصالح، ولعلّ الرخصة وهي السهولة في الحكم المتغير إليه لعذر ومع قيام السبب للحكم الأصلي المتغير هي إحدى مسايرة الشرع للواقع والحال والظروف مقابل العزيمة، وهو عبارة عن القصد المؤكد في عرف الشرع.

مقاصد الشريعة في الإسلام[1] :

لقد كان من أبرز معالم العقل المسلم الذي صبغه الإسلام وأعاد تشكيله أنه عقل

(١) انظر كتابنا مقاصد الشريعة في الإسلام - طبعة مكتبة الإيمان بالمنصورة -. الفائز بجائزة وزارة الأوقاف (الحج على نفقة الدولة) عام ١٩٩٤ والجائزة الأولى على مستوى الجمهورية.

نمائي تعليلي مقاصدي يدرك أنه ما من شيء فضلاً في هذا الوجود فضلاً عن أحكام الحياة تنظيماتها إلا لـه حكمة وعلّة وسبب، فلا مكان للمصادفة في هذا الوجود، ولا مجال لانتفاء الأسباب، ولقد كانت هذه القضية من الوضوح في العقل المسلم بمكان، فالعلّة والمعلول والسبب والمسبب والمقدمة والنتيجة صنع الله الذي أتقن كل شيء خلقه.

فاشتملت آيات كثيرة من الكتاب الكريم على علل ظاهرة وأسبابه تبين قصد الشارع مما شرع، ومن ذلك إرسال الرسل: ﴿ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥].

وقلما تجد من التشريعات الإلهية شيئاً لم ينص على علته كما حدث هذا في أحاديث رسول الله ﷺ وسنته وما لم ينص على مقصده وغايته يمكن أن يندرج تحت المقاصد العامة والغايات الكلية والتي جاء بها الإسلام في كلياته الخمس: حرمة الدم وحرمة النفس وحرمة الدين وحرمة العقل وحرمة العرض والنسب.

وقد كان كتاب الموافقات في أصول الشريعة للإمام الشاطبي بحثاً في المقاصد من حيث العموم، وقد عرف بالاستقراء والتأمل أن مصالح العباد تتعلق بأمور ضرورية أو حاجية أو تحسينية..

قال الشاطبي[1] : ومصالح الدنيا على ضربين؛ سواء أكان تحصيلها عن طريق جلب المنافع أم عن طريق دفع المضار..

أ) **مصالح ضرورية** : وهي أعلى المراتب للمقاصد الشرعية.. والضروريات المتفق عليها في الشرائع كلها خمسة.. أشياء لا قيام لحياة الناس بدونها وقد أطلق العلماء على هذه الأمور اسم الكليات الخمسة التي تعتبر عندهم أصولاً للشريعة وأهدافها العامة وهي[2]:

١ – **حفظ الدين** : وهو علة الوجوب للقتال والجهاد إذا ما استهدف الدين من قبل الأعداء ونحوهم.

---

(١) انظر الموافقات للشاطبي (١٣/٢).

(٢) انظر: المقاصد العامة للشريعة الإسلامية؛ د/ يوسف حامد العالم ص٨٠.

٢- **حفظ النفس** : وهو علة وجوب القصاص للمحافظة عليها من القتل وحفظ كرامتها وحريتها.

٣- **حفظ العقل** : وهو علة لتحريم المخدرات والمسكرات.

٤- **حفظ المال** : وهو علة لقطع يد السارق.. وتحريم الربا والرشوة ونحو ذلك من أكل أموال الناس بالباطل.

٥- حفظ النسل والعرض : وهو علة لتحريم الزنا وتحريم القذف..

ب) **والضرب الثاني : وهي المصالح الغير ضرورية** ولكنها هامة غير مستغنى عنها وهي على قسمين :

١- **حاجيات** : أي يحتاج الناس إليها لتيسير أعمالهم وتحسين معاشهم كالبيع والإجارة والمضاربة، فإذا فاتتهم لم يختل نظام الحياة ولكن يصيب الناس ضيق وحرج.

٢- **تحسينات** : وترجع إلى الأخلاق والآداب ومكارم الأخلاق ومحاسن العادات وما يؤدي إلى المروءة والسير على أفضل منهاج وخير سبيل.

وقد نظم بعضهم المقاصد العامة للشريعة فقال :

وروعي فاعلم ذلك في كل ملة ::: مضت حفظ خمس في جميع الشرائع
هي الدين.. ثم النفس والعقل ثالث ::: مع النسل مال فامشها في المسامع[1]

أنظمة الإسلام :

فالإسلام دين شامل في جميع أمور الدنيا والدين يشمل في منظومته :

١- **نظام الأخلاق** : من أقواله عليه السلام «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**».. كما أنه عليه الصلاة والسلام : عرف الدين بحسن الخلق.. ومن أمثلته :

أ- الوفاء بالعهد: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٤].

(١) للتفصيل انظر كتاب المؤلف: مقاصد الشريعة في الإسلام؛ مكتبة الإيمان بالمنصورة.

ب- النهي عن الإسراف والتبذير والبخل والتقتير : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٩].

جـ- الأمر بالعدل: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٨].

د- التعاون على البر والتقوى والنهي عن البغي والعدوان: ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ [المائدة: ٢].

هـ- النهي عن الظلم : اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة.

و- الصبر : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

ز- الصدق من علامات الإيمان: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [التوبة: ١١٩]، والنهي عن الكذب: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر: ٢٨].

وغير ذلك من الحث على تفضيل الأخلاق مثل التحلي بالحلم والأناة والحياء، فإن الحياء لا يأتي إلا بخير في الرفق فإن الرفق ما كان في شيء إلا زانه.

والنهي عن الأخلاق الذميمة مثل الحسد والحقد والتباغض والعجب والبخل والشح والفرخ والرياء والنهي عن الغضب وعن المراء والجدل.. وغير ذلك مما يدل على شمول الإسلام لجميع الأخلاق الفاضلة التي لها صلة بتقوى الله وقوة الإيمان.

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [الشمس: ٧ - ١٠].

٢ – النظام الاجتماعي : وأساسه العدل الاجتماعي في الإسلام ومراعاة الأخلاق.. ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ﴾ [النحل: ٩٠].

إلى جانب عناية الإسلام بالأسرة اللبنة الأولى في كيان المجتمع وضرورة قيام

المجتمع الصالح والاهتمام بالمرأة نصف المجتمع.

٣- **نظام الحسبة** : والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٤- **الإسلام ونظام الحكم** : بالديمقراطية والشورى والسياسة الشرعية كمبنى للنظام السياسي في الإسلام وقيام الدولة.

٥- **النظام الاقتصادي في الإسلام** وتوفير حرية العمل وحق الملكية الشخصية.

* * * * *

الفصل السادس :
حكم الدعوة إلى الله

لما كان الإسلام هو الدين الكامل والرسالة التامة والحلقة الأخيرة في صلة السماء بالأرض، لم يشأ الخالق أن يكون الدعوة إليه قاصراً على زمان بعينه أو خاصاً بفئة محددة، فجعله ديناً لجميع خلقه وكانت رسالة سيدنا محمد ﷺ عامة لجميع الخلائق في كل زمان ومكان وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، أجمع على ذلك جميع علماء الأمة خلفاً عن سلف إلى يومنا هذا من غير نكير من أحد.

أولاً : وجوب الدعوة إلى الله :

وحتى يتحقق ما تضمنته تلك الشريعة من مبادئ الخير والهدى ومعالم النور والحضارة القادرة على حاجة البشرية والصالحة لتنظيم حياتها وحكم تصرفاتها في العسر واليسر.

حتى يتحقق ذلك كله في كل زمان ومكان، كان لابد من حمل الدعوة لهذا الدين العظيم وتبيين أحكامه للناس، صحيحة من الدخيل، سليمة من البدع، خالية من الأهواء لتحصل لهم الهداية بسببها ويشملها نور الله من أجلها.

وهنا يجيء دور الدعوة الإسلامية، ودور دعاتها القائمين على حملها وتبليغها وهم العلماء ورثة الأنبياء: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

وكما روى الترمذي وأبو داود وأحمد وابن ماجه من حيث رسول الله ﷺ : «العلماء ورثة الأنبياء.. وأن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم فمن أخذ به فقد أخذ بحظ وافر».

ومن هنا كانت الدعوة هي القيام بواجب البلاغ لرسالة سيدنا محمد ﷺ وهي عامة لجميع الناس والإسلام دين الكافة: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

ومن ثم يكون الإعلام بها واجباً وتكون الدعوة إليها أمراً يفرضه الإسلام لما هو

مقرر فيه، فلا تكليف من غير إعلام ولا جزاء من غير علم بالرسالة ودعوة بها، وهذا هو دور الدعاة: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥].

والعلماء الدعاة إنما هم ورثة الأنبيـــاء فتبقى الدعوة في أعناق الدعاة والهداية إلى الرشد على كاهل المرشدين بتكليف من الله بما ائتمنهم عليه وحملهم مسئولية تبليغه إلى الناس أجمعين.

يقول الشيخ سيد سابق في الإشارة إلى ذلك ما خلاصته :

إن الله فرض على المسلمين أن يحملوا مواريث النبوة وأن يضطلعوا بأعباء الرسالة ويقودوا الناس إلى الله ويوجهوهم وجهة الحق والخير، فتعلو بذلك إنسانيتهم وتسموا مواهبهم ويحققوا معاني الهدى والرشاد، وبهذا كانت هذه الأمة خير الأمم: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ومن هنا نستطيع أن نعرف حكم الله في تبليغ دعوته للناس ونشر هدايته للعالمين، بما ذكره العلماء من أدلة الوجوب العديد من آيات الله عز وجل، من ذلك قولـــه : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

ومن أمثلة أدلة الوجوب في السنة ما جاء من حديث رسول الله ﷺ قال : «الدين النصيحة» قالها ثلاثاً.. قلنا لمن يا رسول الله ؟ قال: «لله ولرسوله والأئمة المسلمين وعامتهم» (رواه مسلم عن تميم الداري رضي الله عنه والبخاري تعليقاً).

ويقول الدكتور غلوش في بيان حكم الوجوب وسببه ما خلاصته :

إن أهمية تبليغ الدعوة تأتي من جانبين :

- **من جانب الناس** : حيث مصلحة الناس وسعادتهم تدعو إلى هذا التبليغ.
- **ومن جانب الدعوة** : لأن طبيعتها الحركة الهادفة والوصول إلى كل مكان في الوجود.

وكان من حكمة الله بالناس أن كلفهم بدينه وأمر المؤمنين باستمرار الدعوة إلى هذا

الدين حتى لا يغيب عن ذاكرة المؤمنين، ولذلك وجب أن يستمر دعاة الإسلام في الدعوة لدينهم ولا يتكلوا على وجود بعض مظاهر الخير، لأن الشيطان مستمر في الإفساد والمعارضين للدعوة كثر عددهم وتعددت وسائلهم - خاصة في هذه الأيام - وعظمت إمكانياتهم.

وينقل عن المغفور له الشيخ محمد خضر حسين الشيخ الأسبق للأزهر قوله :

ولا تنس أن المضلين المخادعين في هذا العصر قد تهيأ لهم من وسائل الدعاية ما لم يتهيأ لغيرهم؛ من نواد تفتح وصحف تنشر وجمعيات تعقد وأموال تنفق وجاه يبذل.. وهناك طائفة لم تفسق عن جحود وتمرد، وإنما أتيت من قبل الجهل وعدم صفاء البصيرة فوضعت بجانب حقائق الإسلام ما يتبرأ من الإسلام.

ثم قال : وهذا يجعل الدعوة إلى الدين من أفضل الواجبات وأحد المساعي حيث أن الفائدة حينئذ محققة.. الخ كلامه [1].

نعم؛ قد تكون المشكلة حقيقة اليوم.. وقد عمت الفتنة وكثر الخبث وأصبحت معها الأمة مهددة بالهلاك لانعزال الصالحين عنها وانسحابهم عن المجتمع وقعود الكثير منهم عن القيام بحسبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الخير [2].. ولكن إلى مدى يكون حدود هذا الواجب ؟

حدود الواجب في الدعوة إلى الله:

يقول الإمام ابن القيم تحت عنوان : فصل في تغيير الفتوى واختلافها بحسب الأزمنة والأمكنة ما خلاصته:

الشريعة التي بعث الله بها رسوله هي عموم العالم وقطب الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة، يمثل لذلك بأن النبي ﷺ شرع لأمته إنكار المنكر ليحصل بإنكاره من المعروف ما يحبه الله ورسوله ﷺ، فإذا كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكر منه وأبغض إلى الله ورسوله فإنه لا يسوغ إنكاره وإن كان الله يبغضه ويمقت أهله، وهذا

(١) الدعوة أصولها ووسائلها.
(٢) انظر: فقه تغيير المنكر؛ د. محمود توفيق، كتاب الأمة ٤١، ص ٢١.

كالإنكار على الملوك والولاة بالخروج عليهم فإن أساس كل شر وفتنته إلى آخر الدهر.

ثم يقول : فقد كان رسول الله ﷺ يرى بالمنكرات أكثر المنكر ولا يستطيع تغييرها بل لما فتح مكة وصارت دار إسلام عزم على تغيير البيت ورده إلى قواعد إبراهيم ومنعه من ذلك مع قدرته عليه خشية وقوع ما هو أعظم منه من عدم احتمال قريش لذلك لقرب عهدهم بالإسلام، ولهذا لم يأذن في الإنكار على الأمراء باليد..

ثم انتهى إلى قوله : فإنكار المنكر أربع درجات :

- الأولى : أن يزول ويخلفه ضده
- والثانية : أن يقل وإن لم يزول بجملته
- والثالثة : أن يخلفه ما هو مثله
- والرابعة : أن يخلفه ما هو شر منه

فالدرجتان الأوليتان مشروعتان، والثالثة موضع اجتهاد، والرابعة محرمة..

ويقول : فإذا رأيت أهل الفجور والفسوق يلعبون بالشطرنج كان إنكارك عليهم من عدم الفقه والبصيرة إلا إذا نقلتهم منه إلى ما هو أحب إلى الله ورسوله كرمي النشاب وسباق الخيل ونحو ذلك.

وإذا رأيت الفساق قد اجتمعوا على لهو ولعب أو سماع مكاء وتصدية فإن نقلتهم عنه إلى طاعة الله فهو المراد، وإلا كان تركهم على ذلك خيراً من أن تفرغهم لما هو أعظم من ذلك، فكان فيه شاغلاً لهم عن ذلك.. وكما إذا كان الرجل مشتغلاً بكتب المجون ونحوها وخفت من نقله عنها إلى كتب البدع والضلال والسحرة فدعه وكتبه الأولى [1].

ويقول في موضع آخر من الكتاب :

وهذا باب واسع.. وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول : مررت أنا وأصحابي في

(١) انظر: إعلام الموقعين؛ لابن القيم، جـ ٣، ص ٤ - ٥.

زمن التتار يقوم بعضهم يشربون الخمر فأنكر عليهم من كان معي فأنكرت عليه وقلت له : إنما حرم الله الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة.. وهؤلاء يصدهم الخمر عن قتل النفوس وسبيّ الذرية وأخذ الأموال فدعهم..

كما مثّل لذلك أيضاً بأن النبي ﷺ نهى أن تقطع الأيدي في الغزو كما رواه أبو داود.

وقال في هذا حد من حدود الله تعالى.. وقد نهى الرسول ﷺ عن إقامته في الغزو خشية أن يترتب عليه ما هو أبغض إلى الله من تعطيله أو تأخيره.. ونقل عن أبي محمد المقدسي إجماع الصحابة عليه..

وأورد من الشواهد عدداً مما يدل على ذلك ومنها : قصة أبي محجن الثقفي فقال :

أتى سعد بن أبي وقاص بأبي محجن الثقفي يوم القادسية وقد شرب الخمر فأمر به إلى القيد وحبسه، قال أبو محجن :

كفا حزناً أن تطرد الخيل بالقنا ::: وأترك مشدوداً عليّ وثاقيا

فقال لسلمى بنت خصفة امرأة سعد : اطلقيني ولك والله عليّ إن سلمني الله أن أرجع حتى أضع رجلي في القيد وإن قتلت استرحتم مني..

قال : فحلته حتى التقى الناس وكانت تسعف جراحه..فلم يخرج يومئذ إلى الناس.

قال : وصعدوا به فوق العذيب ينظر إلى الناس واستعمل على الخيل خالد بن عرفطه فوثب أبو محجن على فرس لسعد يقال لها البلقاء ثم أخذ رمحاً ثم خرج فجعل لا يحمل على ناحية من العدو إلا وهزمهم وجعل الناس يقولون : هذا ملك لما يرونه يصنع..

وجعل سعد يقول : الصبر صبر البلقاء والظرف ضفر أبي محجن وأبو محجن في القيد، فلما هزم العدو رجع أبو محجن حتى وضع رجليه في القيد.

فأخبرت ابنة خفصة سعداً بما كان من أمره..

فقال سعد : لا والله لا أضرب اليوم رجلاً أبلى المسلمين ما أبلاهم فخلّى سبيله.

فقال أبو محجن : قد كنت أشربها إذ يقام على الحد - وأطهر منها - فأما إذا بهرجتني فوالله لا أشربها أبداً.

قال : وقال قولته؛ بهرجتني أي أهدرتني الحد عني.

ثم قال : وليس هذا ما يخالف نصاً ولا قياساً ولا قاعدة من قواعد الشرع ولا إجماعاً، بل لو ادعى أنه إجماع الصحابة كان أصوب.

قال الشيخ في المغني : وهذا اتفاق لم يظهر خلافه.

ثم ذكر بعد ذلك من الأمثلة على ما ذهب إليه من منع النهي عن المنكر إذا أدى إلى مفسدة أعظم منه بما يضيق المقام عن سرده [1].

وفي كتابه الشهير الحسبة لابن تيمية [2] يقول :

" فإن الأمر والنهي وإن كان متضمناً لتحصيل مصلحة ودفع مفسدة فلينظر في المعارض له، فإن كان الذي يفوي من المصالح أو يحصل من المفاسد أكثر، لم يكن مأموراً به، بل يكون محرماً إذا كانت مفسدته أكثر من مصلحته، لكن اعتبار مقادير المصالح والمفاسد هو بميزان الشريعة، فمتى قدر الإنسان على اتباع النصوص لم يعدل عنها، وإلا اجتهد برأيه لمعرفة الأشباه والنظائر ".

وفي موضع آخر من نفس كتاب الحسبة يقول ابن تيمية [3] :

" بحيث لا يتضمن الأمر بمعروف فوات أكثر منه أو حصول منكر فوقه، ولا يتضمن النهي عن المنكر حصول أنكر منه أو حصول فوقه، ولا يتضمن النهي عن منكر حصول أنكر منه أو فوات معروف أرجح منه ".

ومن تطبيقات ذلك قول ابن النحاس :

" من هذا النوع لوجدنا رجلاً يرقب امرأة ليفسق بها إذا مرت فرأى خمراً فاشتغل

---

(١) راجع إعلام الموقعين؛ للإمام ابن القيم، جـ ٣.
(٢) كتاب الحسبة؛ ص ١٢٢.
(٣) ص ١٢٤.

بشربه ولو منعناه لامتنع ولكن لا يقدر على دفعه عن المرأة، فإننا لا نمنعه عن شرب الخمر إذا كان شربه يشغله عن منكر أعظم منه [1]".

أما إن تساوى المعروف والمنكر عند شخص أو مجموعة بحيث يغفلوها جميعاً أو يتركوها جميعاً.. فيقول الإمام ابن تيمية :

" إذا الشخص أو الطائفة كانا جامعين بين معروف ومنكر بحيث لا يفرقون بينهما بل إما أن يفعلونهما جميعاً أو يتركونهما جميعاً لم يجز أن يؤمر بمعروف أو ينه عن منكر، بل ينظر فإن كان المعروف أكثر أمر به، وإن استلزم ما هو دونه من المنكر ولم ينه عن منكر يستلزم تفويت معروف أعظم منه، بل يكون النهي حينئذ من باب الصد عن سبيل الله والسعي في زوال طاعته وطاعة رسول الله وزوال فعل الحسنات.

وإن كان المنكر أغلب نهى عنه وإن استلزم فوات ما هو دونه من المعروف ويكون الأمر بذلك المعروف المستلزم للمنكر الزائد عليه أمراً بمنكر وسعياً في معصية الله ورسوله.

وإن تكافأ المعروف والمنكر لم يؤمر بهما ولم ينه عنهما فتارة يصلح الأمر وتارة يصلح النهي وتارة لا يصلح لا أمر ولا نهي، حيث كان المعروف والمنكر متلازمين وذلك في الأمور المعنية الواقعة..

ومن هذا الفصل نخلص :

- إقرار النبي ﷺ لعبد الله بن أبيّ وأمثاله من أئمة النفاق والفجور لما لهم من أعوان، فإزالة منكره بنوع من عقابه مستلزمة إزالة معروف أكثر من ذلك بغضب من قومه وحميتهم وبنفور الناس إذا سمعوا أن محمداً يقتل أصحابه [2].
- ومن ذلك : حين قال عبد الله بن أبيّ في غزوة بني المصطلق فيها رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار فتناحرا : فعلوها ؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرج الأعز منها الأذل، فبلغ النبي ﷺ فقام عمر فقال: يا رسول الله أضرب عنق

(١) انظر: تنبيه الغافلين؛ لابن النحاس، ص ١٠٠.
(٢) انظر: الحسبة؛ لابن تيمية ص١٢٢، ١٢٣.

هذا المنافق ؟ فقال النبي ﷺ : «دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه» (متفق عليه).. بعدها قال عمر : قد - والله - علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري [1] [2].

ومن ثم فإن تغيير المنكر المترتب على تغييره آثار فردية أو جماعية لا يستقيم القيام به إلا بعد مراجعة ملابساته والموازنة بينها وبين آثاره [3]، ومن هنا كان: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥].

ويتناول الدكتور / غلوش هذه المسألة أيضاً ولكن بأسلوب آخر حيث يفصل لنا مسألة وجوب الدعوة.. ومن يشملهم الحكم؟ ومتى يتنزل الحكم من الوجوب العيني إلى الوجوب الكفائي ؟ ومنطق القائلين بعدم الوجوب وشبههم والرد عليهم ومن ذلك ما خلاصته :

" الدعوة ليست كائناً متحركاً بذاته ولكنها مفهوم معنوي يطبقه مخلوق مكلف بعد أن يدركه ويحيط به.. ولأنها هكذا؛ أوجب الله على رسوله تبليغها فقال: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [المائدة: ٦٧].

ومن أدلة الوجوب من السنة قوله عليه السلام : «ليبلغ الشاهد منكم الغائب».. رواه البخاري.

وقال عليه السلام : «بلغوا عني ولو آية».

والخلاصة كما نراها ويراها الدكتور عبد الله مبروك النجار [4] أن الواجب في الدعوة يتحدد بالمنهج ولا يتعداه في غايتها، وإذا كان منهج الدعوة لا يتمثل في المضمون الذي يوصله الداعية لمن يدعهم والأسلوب الذي يخاطبهم به أو يمكن تسميته بالشكل والموضوع في الدعوة، فإن الغاية تتمثل في تحقيق ذلك المنهج لهدفه وهو حصول الهدي في قلب من يدعي.

---

(١) انظر: البخاري؛ حديث رقم ٦٣ (٢٥٨٤)، جـ ٤، ص ٤٥، ٤٦.

(٢) انظر: البداية والنهاية؛ لابن كثير، ١٨٥/٤.

(٣) انظر: فقه تغيير المنكر؛ ص ٣٢، وانظر: فقه الدعوة إلى إنكار المنكر؛ عبد الحميد البلالي ص ١٤٨.

(٤) انظر: مجلة منبر الإسلام؛ رجب ١٤٢٤هـ، ص ١٠٠، وانظر للمؤلف كتابه (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: كيف؟.

وغاية الدعوة من اختصاص الله عز وجل، فهو الذي يقلب القلوب ويشرح الصدور ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وإن اختصاص الله - سبحانه - بغاية الدعوة ينطوي على أبلغ دلالات التشريف للدعاة؛ إذ سبحانه جعل أمرها شركة بينه وبينهم.

ولهذا شرفهم حين اختصهم بوارثة الأنبياء واتباع هديها..

وحين أجزلهم العطاء بسببها وجعل لهم من الأجر عليها مثل أجور من يدلونهم على الهداية ويأخذون بأيديهم إلى طريق الله، فقد روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «**من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص من أجورهم شيئاً**».

كما أن اختصاص الله تعالى لغاية الدعوة ما يسد الطرائق أمام الإكراه في الدين.. كما أن فيه تدعيماً لهذا المبدأ وتأكيداً له، لأنه إذا كانت الهداية بيد الله.. فإذا كان ذلك كذلك وهو كذلك، فإنه لا يجوز لمشتغل بالدعوة أن يرغم أحداً على الدخول في الإسلام ويترك أمر ذلك لربه حيث يقول تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ويقول سبحانه وتعالى مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩].

وأن النهي عن الإكراه في الدين هو المدخل الصحيح لتحقيق مقصد الشارع الحكيم سبحانه في أمرين:

أولهما : أن الإكراه ينافي حقيقة الإيمان؛ إذ جاء عن إكراه لا يقبله الله، فرعون مثلاً عندما أدركه الغرق: ﴿ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٩٠]، فكان الرد من الله سبحانه: ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [يونس: ٩١].

وعن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**».. رواه الترمذي.

ثانيهما : أن أمر الهداية مادام بيد الله سبحانه ولا إكراه ينافي حقيقة الإيمان، فلا جناح على المسلم أن يتواصل مع غير المسلمين وفق الآية ٨ من سورة الممتحنة : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الممتحنة: ٨]. ولهذا كان من المقرر أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم.

ومنهج الدعوة هو الذي ينبغي أن يقف عنده طموح أي داعية، لأنه القدر الذي رسمه الله.. قال تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ [الشورى: ٤٨]، ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الغاشية: ٢١ - ٢٢].

طبيعة الوجوب في الدعوة إلى الله :

فإذا كانت الدعوة إلى الله واجبة وهي كذلك، فإن هذا الوجوب قد اعترى توصيفه خلاف في الرأي بين العلماء يمكن رده إلى قولين أو إلى فريقين :

حيث يرى الفريق الأول :

أن تبليغ الدعوة إلى الله على سبيل الكفاية؛ أي أنه واجب كفائي ومن أصحاب هذا الرأي الإمام السيوطي حيث يقول في الأشباه والأنظار :

إن من جملة فروض الكفاية : تعليم الطالبين وهداية الضالين وهذا الرأي يقوم على أدلة قوية تؤكد معناه وتبين صحته منها قول الله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢].

فقد جعل الله تعالى القيام بالدعوة واجباً على أهل الكفاية ممن تتوافر فيهم شروط الدعوة من المسلمين الذين تعلموا لها وأحاطوا بعلومها وتفرغوا للقيام بأمرها..

ومن هذه الأدلة أيضاً قول الله تعالى :

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. وفسر البعض أن منكم بأن من بيانية وقالوا أن الدعوة إلى الله فرض عين على كل قادر عليها.. وهناك من قال أن (من) تبعيض، وأن الدعوة إلى الله واجب كفائي إذا قامت به طائفة سقط عن الباقين..

يقول الإمام القرطبي في تفسير هذه الآية [1]:

من في قوله منكم للتبعيض ومعناه أن الآمرين يجب أن يكونوا علماء وليس كل الناس علماء.. وقيل : لبيان الجنس والمعنى لتكونوا كلكم كذلك.. ثم يقول : قلت؛ القول الأول الأصح فإنه يدل على أن الأمر بالمعروف والهي عن المنكر فرض على الكفاية، وقد عينهم قول الله تعالى بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [الحج: ٤١] وليس كل الناس مكنوا.

يقول الشافعي : فرض الكفاية يكون واجباً على العموم ووجباً على الخصوص، فوجوب على الخصوص يختص بالقادرين الذين هيئوا لذلك العمل الخاص ووجوبه على العموم، إنما يكون بإعانة هؤلاء القادرين وتربيتهم وإعدادهم.

ومن القواعد المقررة في الشريعة : أن: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وهذا يدل على أنها واجبة على العلماء وحدهم.

أما الفريق الثاني :

فيرى أن الدعوة إلى الله واجب على الكافة وليس على الكفاية، أي أنها واجب عيني على كل مسلم حسب قدرته واستطاعته وعلمه ولو بآية واحدة من القرآن.

ومن أصحاب هذا الرأي فضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله تعالى، وقد استدل بقوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، حيث أسند الحق سبحانه وتعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للأمة كلها، تدل ذلك على أن القيام بها من الواجبات المتعينة على كل فرد من أفرادها والدعوة من قبيل كل منها.

ويقول الله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ [يوسف: ١٠٨]، حيث أخبر النبي ﷺ، كما حكى عنه القرآن أن الدعوة واجب عليه وعلى من اتبعه، ولا شك أن كل مسلم متبع له فتتعين الدعوة عليه، وهذا معنى فرض العين.

(١) انظر: تفسير القرطبي؛ جـ ٤، ص ١٦٥.

ثم يقول رحمه الله : الدعوة من اختصـــاص الكافـــة، وذلك اقتداءً بما كان يفعله الصحابة والتابعون من بعدهم، فكل من كان على علم بالإسلام وحقائق الإيمان، يعلم غيره ويدعوه إلى الله سواء كان من المشركين أو ممن يتصلون به بقرابة أو جوار أو صداقة أو لقاء، ولأنهم يعلمون أن الإسلام دعوة إلى الحق، فيدعون إليه من كون في ضلال من أمره، كما حدث من جعفر بن أبي طالب حيث وقف يشرح للنجاشي ملك الحبشة حقيقة الإسلام وقت أن هاجر إليها.

والرأي الأول هو الراجح في نظرنا لأن الدلالة التي استند إليها القول الثاني وإن كانت تفيد الاختصاص بالدعوة على عموم الأمة إلى أن هذا العموم مخصوص بالاستطاعة ومقيداً بها إعمالاً لقوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

ومن المعلوم أن الدعوة إلى الله عبء لا يقدر كل أحد على القيـــام بـــه فتجب على سبيل الكفاية، وأيضاً فإن الرأي الأول يحتوي في مفهومه على الرأي الثاني..

كما أن العالم الداعي المتخصص يراعي الوقت المناسب للتبليغ ويتخير الظرف المناسب، يقول صاحب كتاب فواتح الرحمات :

" إن التبليغ وإن أدى في غير وقته المناسب وطرقه الملائمة لم يحدث الاتباع والتأثير ".

وهذا ما لا يتيسر لكل الناس وبذلك تكون الدعوة على فقه.

ولأن القول بعينية الوجوب في الدعوة على كل مسلم يشج كثيرين ممن لا يصلحون لها، وما يخلطون بين الدعوة ككل وبين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كجزء من كل، والذين لا يفقهون من أمور الدين ما يؤهلهم للقيام بالدعوة، وقد يحلون الحرام ويحرمون الحلال، وهذا عبث لا منجاة منه إلا بمراعاة التخصص والكفاية.

فنحن نرى أن الدعاة يجب انتقاءهم وفق سمات معينة وخاصة في نشأتهم، كما يجب كذلك أن يتم إعدادهم وتكوينهم كما يجب لتنجح دعوتهم..

وهذا موضوع ا لباب الثاني.

* * * * *